الحياة الطيّبة
السنة 27
العدد 53-52
شتاء-ربيع 2023م
مرصد الحياة

السَّيِّد عَبْد المُحْسن فَضْل الله قدس سره عَلَّامَةٌ مِنْ عامِلَة

الدكتور الشيخ عبَّاس فتوني[1]

مقدّمة:

يَنْتَسِبُ إِلَى عائلَة آلِ فَضْلِ الله، الَّتي تَنْتَهي سِلْسلَةُ نَسَبها إِلَى الحَسَن المُثَنَّى ابْنِ الإمام السِّبْطِ أَبي مُحَمَّد الحَسَنِ بْنِ عَليِّ بْنِ أَبي طالب عليه السلام؛ ومِنْ جِهَة الأُمِّ، يَنْتَسِبُ إِلَى فاطِمَةَ بِنْت الإمام الحُسَيْن عليه السلام، زَوْجَة الحَسَن المُثَنَّى. وقَدْ عَرَفَتْ هَذه العائلَةُ عَلَى مَرِّ تاريخها ثُلَّةً مِنَ العُلَماء، مِنْهُمْ عَلَى سَبيل المثال: السَّيِّدُ مُحْيي الدِّين قدس سره، الَّذي عاصَرَ الشَّيْخَ الأَنْصاريَّ قدس سره، ولَهُ مَعَهُ مُراسَلَةٌ تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَنْزلَته، كَما ذَكَرَ السَّيِّدُ مُحْسنُ الأَمين قدس سره في أَعْيانه؛ ويَعُودُ تاريخُ هَذه العائلَة، في قَرْيَة عَيْناثا، مِنْ جَبَل عامِلَ، إِلَى القَرْنِ الخامسَ عَشَرَ المِيلاديِّ، والتَّاسعِ الهِجْريِّ.

وِلادَتُهُ ونَشْأَتُهُ

وُلِدَ السَّيِّدُ عَبْدُ المُحْسن فَضْل الله في النَّجَف الأَشْرَف، وبِحَسَب بَعْض القَرائن، في سَنَة 1350هـ - 1932م. ذَلكَ أَنَّ والِدَهُ اسْتَقَرَّ في بَلْدَته عَيْناثا، بَعْدَ تَرْكه النَّجَف في سَنَة 1351 هـ وعُمْرُهُ حِينَذاكَ، كَما تَقُولُ والِدَتُهُ: سَنَةٌ أَوْ تَزِيدُ قَليلًا. عاشَ اليُتْمَ والفَقْرَ في طُفُولَته. تُوُفِّيَ والِدُهُ، ولَهُ مِنَ العُمْرِ

(1) أستاذ جامعي وحوزوي، من لبنان.

تسْعُ سَنَوات. بَعْدَ أَشْهُرٍ قَليلَة منْ وَفاة والده، تَوَلَّدَ فيه إحْساسٌ، كانَ يُدْرِكُ أَنَّهُ يَفُوقُ عُمْرَهُ؛ إحْساسٌ مُلِحٌّ لِلْخُرُوج منْ قَرْيَته، لَمْ يَمْلكْ تَعْليلًا لَهُ، أَوْ أَنْ يُحَدِّدَ لَهُ هَدَفًا. وهُوَ في هَذا الشُّعُور الضَّاغط، دَخَلَ "الكُتَّابَ" لتَعَلُّم القراءَة والكتابَة والقُرْآن الكَريم؛ وكانَت المُعَلِّمَةُ فيه امْرَأَةً مُتَقَدِّمَةً في السِّنِّ منْ عائلَته، لَها مراسٌ طَويلٌ في تَعْليم الكتاب الكَريم؛ وقد قَرَأَ عَلَيْها والِدُهُ، ومَنْ تَقَدَّمَهُ[1].

في بدايَة دُخُوله "الكُتَّابَ"، كانَ يَسْهَرُ السَّاعاتِ الطِّوالَ؛ يَقْرَأُ عَلَى مصْباح زَيْت، لحفْظ الدَّرْس المَطْلُوب منْهُ في صَبيحَة تلْكَ اللَّيْلَة؛ وسُرْعانَ ما نالَ ثقَةَ الشَّيْخَة، وأَصْبَحَتْ تَعْتَمدُ عَلَيْه "بالتَّسْميع" لزُمَلائه؛ أَمَّا هُوَ فتَكْتَفي منْهُ بإخْباره لَها، أَنَّهُ حافظٌ دَرْسَه. ولَمْ يَطُلْ مُقامُهُ عنْدَها أَكْثَرَ منْ ثَلاثَة أَشْهُر، خَتَمَ فيها القُرْآنَ الكَريمَ، ليَدْخُلَ "مَكْتَبًا" آخَرَ لتَعْليم الخَطِّ؛ وكانَ المُعَلِّمُ فيه منْ سادَة آل جَعْفَرَ، جَميلَ الخَطِّ، أَديبًا، شاعرًا، ساخرًا، ناقدًا، مُنْطَويًا، شَديدًا عَلَى طُلَّابه، سَلْطَ اللِّسانِ في تَأْنيبه؛ وهَذا أَهْوَنُ ما يُعاملُ به المُتَخَلِّفينَ منْ طُلَّابه؛ ومنْ حُسْن الحَظِّ أَنَّ خَطَّ الفَتَى السَّيِّدَ، كانَ يُقارِبُ خَطَّهُ، فنالَ رضاهُ في مُدَّةٍ لا تَزيدُ عَلَى السِّتَّة أَشْهُرٍ[2].

عنْدَ انْتهائه منْ تَعَلُّم الخَطِّ، دَخَلَ المَدْرَسَةَ الرَّسْميَّةَ، في بنْت جُبَيْل، بَقيَ فيها ثَلاثَ سَنَوات، تَحَدَّدَتْ فيها أَبْعادُ ذَلكَ الشُّعُور، وتَوَلَّدَ فيه شَوْقٌ مُلِحٌّ، ليُعِدَّ نَفْسَهُ إلَى النَّجَف الأَشْرَف، لطَلَب العلْم الدِّينيِّ، مُرْتَسمًا خُطَى أَبيه وأَجْداده؛ فخَرَجَ منَ المَدْرَسَة، ولَهُ منَ العُمْر خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ وما أَنْ بَلَغَ السَّادسَةَ عَشْرَةَ، حَتَّى تَوَجَّهَ إلَى النَّجَف الأَشْرَف، بَعْدَ أَنْ لاقَى مُعارَضَةً شَديدَةً، أَشارَ إلَيْها في قَصيدَة: "صَفْحَة منْ حَياتي"، وهيَ مُثْبَتَةٌ في ديوانه، مَطْلَعُها:

(1) السَّراب، ص23.
(2) السَّراب، ص24.

صارَعْتُ دَهْرِي، ولَمَّا صَرَعْتُهُ بِاقْتِدارِ[1]

أَجَلْ، تَوَجَّهَ إِلَى النَّجَف الأَشْرَف بِصُحْبَة ابْن عَمِّه المُقَدَّس السَّيِّد عَبْد اللَّطيف فَضْل الله، الَّذي يَكْبُرُهُ سنًّا، وذلكَ بِالسَّيَّارَة عَنْ طَريق حَلَب، في 22 صَفَر في سَنَة 1366 هِجْريَّةً، فوَصَلَ النَّجَفَ في أَوائِل رَبيع الأَوَّل، مِنْ تِلْكَ السَّنَة، وابْتَدَأَ بِدراسَة المُقَدِّمات والسُّطُوح، عَلَى يَد ابْن عَمِّه آيَة الله السَّيِّد عَبْد الرَّؤُوف فَضْل الله قدس سره، ابْتَدَأَ مِنَ "القَطْر" وانْتهاءً بِالرَّسائِل والمَكاسِب؛ وحَضَرَ قِسْمًا مِنْ شَرْح مَنْظُومَة السِّبْزَواريِّ[2] في الفَلْسَفَة، عَلَى يَد الشَّيْخ مُحَمَّد تَقي صادق قدس سره؛ ومِنْ أَساتذَته خارِجًا في بَعْض أَبْواب الفقْه، المَراجِعُ: السَّيِّدُ عَلي الفاني، والشَّيْخُ عَبَّاسُ الرُّمَيْثي، والسَّيِّدُ مُحْسنُ الحَكيم بُرْهَةً قَصيرَةً؛ وكانَ الحُضُورُ المُسْتَمرُّ، والفائدَةُ التَّامَّةُ عَلَى يَد أُسْتاذه السَّيِّد أَبي القاسِم الخُوئِيُّ، فِقْهًا، وأُصُولًا، في مُدَّة تَنُوفُ عَلَى العَقْدَيْن مِنَ الزَّمَن".

حَتَّى هُنا، هَذا ما وُجِدَ عَلَى وُرَيْقات بِخَطِّه، وهِيَ تَدُلُّ عَلَى نُبُوغه المُبَكِّر، وعَلَى صِدْق المَقُولَة، الَّتي تَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَهْله، وهِيَ أَنَّ والِدَهُ كانَ يَتَنَبَّأُ لَهُ بِمُسْتَقْبَل عِلْميٍّ زاهِر، فيُناديه، على الرُّغْم مِنْ صِغَر سِنِّه، بِالعَلَّامَة، ولَمَّا يَبْلُغِ التَّاسِعَةَ مِنْ عُمْرِه.

في النَّجَفِ الأَشْرَفِ، ومَكانَتُهُ العِلْمِيَّةُ

وَصَلَ النَّجَفَ الأَشْرَفَ في العام 1366 هـ 1947 م. في وَقْت كانَ عَدَدُ العامِلينَ فيها دُونَ العِشْرينَ لُبْنانيًّا، تَغْلُبُ عَلَيْهِمُ الفَضيلَةُ والتَّحْصيلُ، فكانَ تَعامُلُهُ وانْخراطُهُ في جَوِّ مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ، وكَما كانَ يَقُولُ: "وَصَلْتُ،

(1) السَّراب، ص 236.

(2) وممَّا يَذْكُرُ السَّيِّدُ هُنا؛ عِنْدَ ذَهابِه مِنْ جَبَل عامِلَ إِلَى النَّجَف الأَشْرَف في العام 1366هـ؛ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى السَّيِّد الشِّيرازيِّ في قِمَّة مَرْجَعِيَّته؛ وعِنْدَما تَعَرَّفَ إِلَيْه، رَحَّبَ بِه تَرْحيبًا خاصًّا، باعْتبار أَنَّهُ قَرينُ والِدِه السَّيِّد صَدْر الدِّين، حَتَّى أَنَّهُ ذَكَرَ، أَنَّهُما سَكَنا في أَوَّل حَياتِهما في مَنْزِلٍ واحِد.

وانْخَرَطْتُ في جَوٍّ علْميٍّ مُتَحَرِّك، آخُذُ منْهُ، وأُعْطي". فَقَدْ عاصَرَ في هَذِهِ المَرْحَلَةِ - إضافَةً إلى ابْنِ عَمِّه المُقَدَّسِ السَّيِّد عَبْد الرَّؤُوف، وشَقِيقِه المُقَدَّسِ السَّيِّد مُحَمَّد سَعيد فَضْل الله - الشَّيْخَ مُحَمَّد تَقي الفَقيه قدس سره، والسَّيِّدَ حُسَيْن مَكِّي قدس سره، وغَيْرَهُمْ منْ هَذا الجيل؛ وعاصَرَ منَ المَراجِع: السَّيِّدَ عَبْدَ الهادي الشِّيرازي قدس سره، الَّذي قَلَّدَهُ قَبْلَ بُزُوغ نَجْمِه العلْميِّ، والسَّيِّدَ مَحْمُودَ الشَّهْرُوديّ قدس سره، والسَّيِّدَ مُحْسنَ الحَكيم قدس سره، والسَّيِّدَ أبا القاسِم الخُوئيَّ قدس سره، الَّذي كانَتْ جُلُّ دراسَتِه عَلَيْه، وغَيْرَهُمْ منَ الطَّبَقَة الأُولَى، الَّتي كانَتْ تَزْدَهرُ بِهِمْ مَدينَةُ النَّجَف؛ وقَدْ تَرَكَتْ هَذِهِ البيئَةُ الأَثَرَ الإيجابيَّ في تَنْشئَتِه العلْميَّة.

ومنْ حين انْتقاله إلَى النَّجَف، أَكَبَّ عَلَى تَحْصيل عُلُومه انْكبابًا شَغَلَهُ عَنْ تَعاطي أَنْشطَة جانبيَّة، لَمْ يُشَجِّعْهُ عَلَيْها تَقَدُّمُهُ بَيْنَ زُمَلاءَ لَهُ، بَلْ حاذَرَ عَلَى طُمُوحه العلْميِّ، منَ الانْجراف المُبَكِّر في أَمْواج الحَياة؛ ولَمْ يُثْنه عَن انْقطاعه هَذا ضيقُ ذات اليَد، إنْ لَمْ يَكُنْ سَبَبًا لَها. كانَ للتَّحْصيل العلْميِّ عنْدَه، آدابٌ كَثيرَةٌ، تَتَّفقُ مَعَ التَّفَرُّغ النَّفْسيِّ والذِّهْنيِّ الَّذي أَرادَهُ، بحَيْثُ لا تَشُوبُهُ شائبَةٌ، منْ شَأْنٍ خاصٍّ، أَوْ غَرَض عامٍّ، تَكْسرُ انْصرافَهُ إلى مَباحثه وكُتُبه وكتاباته؛ فالوَقْتُ بحَسَب ما دَأَبَ عَلَى تَرْداده لجُلَسائه ومُحيطيه، "كَالسَّيْف، إنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ". فتابَعَ دُرُوسًا إضافيَّةً في أَيَّام عُطَله، ولَمْ يُغادرِ العراقَ طَوالَ ثَلاثٍ وعشْرينَ سَنَةً، إلَّا مَرَّتَيْن، فُصلَتْ بَيْنَهُما سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً[3].

مُنْذُ بدايَة تَرَعْرُعه العلْميِّ، اتَّخَذَ سَبيلَ المَشَقَّة في دراسَته؛ ونُسبَ إلَيْه، أَنَّهُ في بَعْض عُهُوده، كانَ يَقْضي سَحابَةَ يَوْمه، سَبْعَ عَشْرَةَ ساعَةً، أَوْ يَزيدُ، لا تُشْغلُهُ عَنْ مَباحثه، إلَّا أَوقاتُ العبادَة، فيما تَنْتابُهُ الدَّهْشَةُ ممَّنْ يَجدُ وَقْتًا للأَحاديث غَيْر المُفيدَة، بَعْدَ مَجْلس الدَّرْس، وقَبْلَ تَحْرير ما سَمعَ. وهُوَ

(3) السَّراب، ص 26.

الَّذي تَشَدَّدَ إلى حَدِّ مَنْعِ تَلامذَته، عَنْ مُراجَعَته في مَسْأَلَة، أَو التَّوَجُّه إِلَيْه بِطَلَب، أَو اسْتفْسار، في أَيَّام التَّحْصيل، مُرْجئًا إِيَّاهُمْ إلى أَيَّام التَّعْطيل. وفي مَجْرَى انْهماكه هَذا، ومَعَ بُزُوغ نَجْمه، رَفَضَ عَرْضًا لِلْوَكالَة في بَعْض نَواحي العراق، منَ المَرْجع الكَبير السَّيِّد مُحْسن الحَكيم قدس سره، وكانَ يَعْرفُهُ عَنْ كَثَب، مُعْتَذرًا بسبب ضيق الوَقْت، فما كانَ منَ السَّيِّد الحَكيم إلَّا أَنْ قال: "اُتْرُكُوهُ، إِنَّهُ عاشقٌ لِلْعِلْم، ولَهُ مُسْتَقْبَلٌ زاهرٌ".

حازَ مَرْتَبَةَ الاجْتهاد في مَرْحَلَة مُبَكِّرَة منْ حَياته، كَما تَنْطقُ بذَلكَ كتاباتُهُ العلْميَّةُ، الفقْهيَّةُ والأُصُوليَّةُ، بحَيْثُ أَصْبَحَ في وَقْت قياسيٍّ، منَ الوُجُوه البارزَة في النَّجَف، ويَعْرفُ ذَلكَ كُلُّ مَنْ واكَبَهُ، أَوْ تَتَلْمَذَ عَلَى يَدَيْه، كَما يَشْهَدُ لَهُ مُعاصرُوهُ. لَقَدْ شاعَتْ هَذه الثِّقَةُ العلْميَّةُ والرُّوحيَّةُ، الَّتي تَمَتَّعَ بها، في أَوْساط نَجَفيَّة مُخْتَلفَة، فتَوَجَّهَتْ إِلَيْه أَنْظارُ بَعْض أَهْلها، وخُصُوصًا في الحَيِّ، الَّذي أَقامَ بِه، وتَرَكَ فيه الأَثَرَ الطَّيِّبَ.

وقَد التَزَمَ الصَّلاةَ في مَسْجده، بدَعْوَة منْ أَبْناء المَحَلَّة، وباتَ مُعْتَمَدًا في قَضاياهُمُ الشَّرْعيَّة، وهيَ خُطْوَةٌ غَيْرُ مَعْهُودَة، في مَدينَة عُرفَتْ بعُلَمائها، وازْدَحَمَتْ بهِمْ. ويُحْكَى عَنْ وُجَهاءَ نَجَفيِّينَ، الحاحهُمْ عَلَيْه بالبَقاء الدَّائم في النَّجَف، طَمَعًا بتَبَوُّئه فيها، مَنْزلَةً مَرْمُوقَةً، تَضَعُهُ في مَصافِّ طَبَقَتها الأُولَى[1].

عاصَرَ بدايات الحَرَكَة الإِسْلاميَّة في العراق، عنْدَ تَأْسيس "جَماعَة العُلَماء" الَّتي قامَتْ في وَجْه المَدِّ الشُّيُوعيِّ، وانْتَسَبَ إِلَيْها بَعْضُ رُفَقاء دَرْبه؛ لَمْ يَنْخَرطْ فيها مُباشَرَةً، رَغْبَةً باسْتقْلاليَّة مَقْصُودَة، لَكنَّهُ لَمْ يُخْف دَعْمَهُ لكُلِّ عَمَل إِسْلاميٍّ، يُؤَدِّي إِلَى قيام دَوْلَة إِسْلاميَّة، يَنْشُدُها كُلُّ عامل في سَبيل الله، عَلَى ما يُعَبِّرُ. وشَكَّلَت النَّجَفُ الأَشْرَفُ مَحَطَّةً أَساسيَّةً منْ حَياته، وقَدْ مَكَثَ فيها زُهاءَ ثَلاثَة وعشْرينَ عامًا، كَرَّسَها لبناء خُصُوصيَّة

(1) السَّراب، ص 27.

علْمِيَّة، تَطَوَّرَتْ به، لِيَغْدُوَ مَحَلًّا لِثِقَة كِبار عُلَمائها، فمارَسَ في حَوْزَتها تَدْريسَ كتابَي: الرَّسائل والمَكاسب؛ ولَمْ يَكُنْ قَدْ تَخَطَّى بَعْدُ أواسطَ عَقْده الثَّالث؛ وأَنْجَزَ حينَها تَقْريرَ، مَباحث الخارج وتَحْريرَها، والَّتي اسْتَعانَ بها كَثيرٌ مِنْ زُمَلائه، فيما اعْتادَ آخَرُونَ عَلَى مُراجَعَته، في شُؤُون الدِّراسَة، واسْتيضاح ما خَفيَ مِنْها.

يَقُولُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ حُسَيْن فَضْل الله رَحِمَهُ اللهُ، في مُقابَلَة أَجْرَيْتُها مَعَهُ، حَوْلَ سيرَة السَّيِّد عَبْد المُحْسن رَحِمَهُ اللهُ: "عِنْدَما أَنْفَتحُ عَلَى شَخْصيَّة السَّيِّد عَبْد المُحْسن فَضْل الله، الَّذي كانَ الأَخَ والزَّميلَ والرَّفيقَ والعالِمَ والشَّاعرَ والمُجاهدَ، إِنَّني أَعْتَقدُ أَنَّ مِنَ المُمْكن أَنْ نُلَخِّصَ حَياتَهُ، أَنَّهُ كانَ يَعيشُ علْمَهُ في رسالَته، وكانَ يُحاولُ أَنْ يَسْتَزيدَ مِنْ ثَقافَته فيما يَقْرَأُ، وفيما يَسْمَعُ، وفيما يُعْطي. وكانَ يَعيشُ الرُّوحيَّةَ الإيمانيَّةَ الإِسْلاميَّةَ في المُسْتَوَى الَّذي تَشْعُرُ فيه بِأَنَّهُ الإِنْسانُ الَّذي يَعيشُ مَعَ الله في عالَم الحُبِّ، كَما يَعيشُ مَعَ الله في عالَم الطَّاعة.

مِنَ الطَّبيعيِّ أَنَّ العَلاقَةَ النَّسَبيَّةَ هيَ أَنَّ والِدَهُ المَرْحُومَ العَلَّامَةَ السَّيِّدَ صَدْر الدِّين فَضْل الله، هُوَ ابنُ عَمِّ المَرْحُوم الوالد، لأَنَّ السَّيِّدَ صَدْر الدِّين هُوَ ابنُ السَّيِّد مُحَمَّد فَضْل الله، الَّذي كانَ أَخًا لِلْمَرْحُوم جَدِّي السَّيِّد نَجيب فَضْل الله. وَقَدْ عِشْتُ مَعَهُ مُنْذُ أَنْ جاءَ إِلَى النَّجَف، فَكانَ زَميلي في الدِّراسة عِنْدَ السَّيِّد الوالد، مُدَّةَ سنينَ، حَيْثُ كُنَّا نَدْرُسُ مَعًا، وكانَ مَعَنا أَيْضًا المَرْحُومُ الشَّيْخُ مُحَمَّد مَهْدي شَمْس الدِّين في هَذه الدِّراسَة. وَقَدْ كانَ بالنِّسْبَة إِلَيَّ أَكْثَرَ مِنْ قَريب، وأَكْثَرَ مِنْ رَفيق. كانَت العَلاقَةُ رُوحيَّةً بَيْني وَبَيْنَهُ، تُمَثِّلُ عَلاقَةً لا نَشْعُرُ فيها بِالتَّعَدُّديَّة، الَّتي تَجْعَلُ إِنْسانًا يَخْتَلفُ عَنْ إِنْسانٍ آخَرَ. كانَ هُناكَ شَيْءٌ مِنَ الانْدماج الرُّوحيِّ فيما بَيْنَنا، ولا سيَّما أَنَّ هَذه العَلاقَةَ، الَّتي انْطَلَقَتْ مِنْ خِلال القَرابَة، ومِنْ خِلال الزَّمالَة، تَجَدَّدَتْ وانْفَتَحَتْ مِنْ خِلال المُصاهَرَة، بِاعْتبار أَنَّهُ تَزَوَّجَ شَقيقَتي، أُمَّ السَّيِّد عَبْد الصَّاحب؛ ولِذَلكَ كُنَّا نَعيشُ هَذه العَلاقَةَ الحَميمَةَ، الَّتي تَتَحَرَّكُ في المَعاني

الحَميمَة، وتَنْفَتِحُ عَلَى التَّواصُلِ الدَّائِم، مِنْ خِلالِ أَنَّ بَيْتَهُ أَصْبَحَ بَيْتِي؛ ولِذَلِكَ كُنْتُ في كُلِّ سَفَراتِي. يَعْنِي كُنَّا في النَّجَف نَعِيشُ في بَيْتٍ واحِد، يَعْنِي كانَ هُوَ يَعِيشُ في جانِبٍ مِنْهُ، وكُنْتُ أَعِيشُ في جانِبٍ آخَرَ. وهَكَذا عِنْدَما انْتَقَلَ إِلَى "خرْبَة سلْمَ"، كانَ بَيْتُهُ هُوَ المَحَطَّةَ الَّتِي أَمُرُّ عَلَيْها، وأَجْلُسُ فيها. كُنَّا نَتَحَدَّثُ في كُلِّ الشُّؤُونِ الَّتِي تَهُمُّ الإِسْلامَ والمُسْلِمِينَ"[1].

مَلامِحُ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ العِلْمِيَّةِ والفِقْهِيَّةِ

يَنْتَمِي السَّيِّدُ عَبْدُ المُحْسِنِ فَضْل الله، إِلَى مَدْرَسَةٍ مُجَدِّدَةٍ في الإِنْتاجِ العِلْمِيِّ، قِياسًا إِلَى البِيئَةِ الَّتِي تَخَرَّجَ مِنْها؛ فَغَلَبَتْ عَلَيْها مِيزَةٌ فِقْهِيَّةٌ مَرْمُوقَةٌ، وتَلَوَّنَتْ بِرَغْبَةٍ في إِحْداثِ تَغْيِير، ما يُوافِقُ الأُطُرَ الحَدِيثَةَ. وعَلَى هَذا المِنْوالِ، كانَتْ مُقارَناتُهُ في أَكْثَرَ مِنْ مِضْمارٍ، بَيْنَ التَّشْرِيعِ الإِسْلامِيِّ، والتَّشْرِيعاتِ الوَضْعِيَّةِ؛ وسَعْيِهِ إِلَى تَرْمِيمِ الهُوَّةِ بَيْنَ الأَدَواتِ التَّقْلِيدِيَّةِ المُتَداوَلَةِ، والأَسْئِلَةِ المُسْتَجِدَّةِ[2].

كانَ ذا مِزاجٍ فِكْرِيٍّ مُعْتَدِلٍ، يَقِفُ - كَما يَظْهَرُ مِنْ كِتاباتٍ مُتَناثِرَةٍ لَهُ - بَيْنَ اتِّجاهَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ، أَنْكَرَهُما مَعًا، هُما: الجُمُودُ المُطْلَقُ عَلَى التَّقْلِيدِ والتُّراثِ، الَّذِي يَنْفُرُ مِنْ كُلِّ فِكْرٍ وافِدٍ، بِاعْتِبارِ أَنَّ التُّراثَ لِهَذا الاتِّجاهِ، كَالجِسْمِ الواحِدِ، لا يُتْرَكُ بَعْضُهُ دُونَ بَعْضِهِ الآخَرِ؛ واتِّجاهٌ آخَرُ، مُفارِقٌ، يَدْعُو إِلَى التَّحَرُّرِ المُطْلَقِ، لأَنَّ الحَضارَةَ بِرَأْيِ أَدْعِيائِهِ، كَالجِسْمِ الواحِدِ أَيْضًا. ويُؤَيِّدُ مَوْقِفُهُ الوَسَطِيُّ بَيْنَ الاتِّجاهَيْنِ، بِتَكامُلِ العَقْلِ والإِيمانِ في المُسْلِمِ، كَعامِلٍ في تَكْوِينِ الحَضارَةِ، والتِزامِ خَطِّ الاعْتِدالِ.

في كِتاباتِهِ المُتَفَرِّقَةِ - ومُعْظَمُها قَبْلَ عُقُود - حَثٌّ لِلْعُلَماءِ عَلَى العَمَلِ، والتَّصَدِّي لِلشُّؤُونِ العامَّةِ، والإِقْلاعِ عَنِ العُزْلَةِ، أَوِ التَّرَفُّعِ عَنِ العامَّةِ؛ ويَقْتَرِبُ مِنْ تَحْمِيلِهِمُ الشَّطْرَ الأَكْبَرَ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ، عَلَى ما آلَتْ إِلَيْهِ أَحْوالُ الأُمَّةِ،

(1) أَجْرَيْتُ هَذِهِ المُقابَلَةَ بِتارِيخ: 27 آب (8) 2007 م.
(2) السَّراب، ص 39.

بِاعْتبارِهِمُ القادَةُ؛ فبِأَيْدِيهِمُ المُبادَرَةُ والخُطَّةُ، وعَلَى كاهِلِهِمْ يَقَعُ العِبْءُ الأَكْبَرُ، وعَلَيْهِمْ وَحْدَهُمْ رَدْمُ الهُوَّةِ بَيْنَ الأُمَّةِ ورِجالِها. تَرَكَتْ حاضِرَةُ النَّجَفِ الأَشْرَفِ، أَعْظَمَ الأَثَرِ في نَفْسِه، وظَلَّ طَوالَ حَياتِه عَلَى حَنِينِه لَها؛ وقَدْ وَهَبَها - كَما يَقُولُ - : رُبْعَ قَرْنٍ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِه؛ ووَهَبَتْهُ أَفْضَلَ إِخْوانِه وخِلَّانِه.

مارَسَ التَّدْرِيسَ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ، في نِطاقٍ، لَمْ يُنافِسْ شَغَفَهُ بِالكِتابَةِ والبَحْثِ؛ ومالَ إِلى الشِّعْرِ مَيْلًا، لاحَظَهُ فِيهِ المُحِيطُونَ بِه؛ وقَرَضَ مِنْهُ ما يَرْفَعُهُ إِلَى مَرْتَبَةِ الشُّعَراءِ المَعْدُودِينَ. وفي نَظْمِهِ وِجْدانِيَّاتٌ غالِبَةٌ، تَنُمُّ عَنْ أَلَمٍ كامِنٍ، وتُفْصِحُ عَنْ رُوحٍ حانِيَةٍ ساجِيَةٍ[1].

في لُبْنانَ

طالَتْ إِقامَتُهُ رَحِمَهُ اللهُ في النَّجَفِ الأَشْرَفِ، وتَوَغَّلَ في دُرُوبِها، عالِمًا ومُتَعَلِّمًا؛ ولَمْ يَكُنْ قَدْ رَسَمَ بَعْدُ، خُطَى عَوْدَتِه إِلَى الوَطَنِ، يَحْدُوهُ طُمُوحٌ، لَمْ يُراوِدْ أَحْلامَ الكَثِيرِينَ؛ فالعَوْدَةُ إِنَّما تَقْطَعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الانْغماسَ الفَرِيدَ، في بِيئَةٍ عِلْمِيَّةٍ، عَشِقَ غِناها، وأَحَبَّ وُعُودَها، وتَوَسَّمَ مِنْها رُتْبَةً، رُبَّما حازَ مِنْها دَرَجَةً، لَكِنَّها لَمْ تَمْلأْ بَعْدُ، قَلْبَ ذَلِكَ الشَّغُوفِ مُنْذُ الصِّغَرِ، بِأَنْ يَسْتَأْنِفَ مَجْدَ آبائِه، أَوْ يُدْرِكَ غَرَضًا رَسَمَتْهُ مُخَيِّلَةُ الصِّبا، فَلَمْ تَسْتَدْرِجْهُ السُّهُولَةُ، أَوْ يُغْرِيهِ العَرْضُ القَرِيبُ، فأَطالَ إِلى قَصْدِه السَّبِيلَ. هَذا الطُّمُوحُ المُتْرَفُ، زَيَّنَ لَهُ التَّمَنُّعَ، وأَحْبَطَهُ عَنِ اغْتِنامِ الفُرَصِ السَّانِحَةِ، مَعَ أَنَّ إِقامَتَهُ في النَّجَفِ، حَتَّمَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُعانِيَ ضَنْكَ الحَياةِ، ومَشَقَّةً في العَيْشِ، قَدْ تَكُونُ في واحِدَةٍ مِنْ هاتِيكَ العُرُوضِ، الَّتِي رَفَضَها، مَنْدُوحَةً مِنْها.

قاوَمَ رَغَباتٍ عَدِيدَةً، حَمَلَها لُبْنانِيُّونَ إِلَيْهِ، تَطْلُبُهُ لِلْعَوْدَةِ، فيَكُونُ بَيْنَهُمُ العالِمَ والمُرْشِدَ، بَعْدَ أَنْ شاعَ بُرُوزُهُ العِلْمِيُّ: واحِدَةً مِنْ قُرًى عامِلِيَّةٍ، وغَيْرِها... وعِنْدَما أَوْفَدَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى ضَواحِي بَيْرُوتَ، جَماعَةً مِنْ أَهْلِها،

(1) السَّراب، ص 40.

رَفَضَ، واعْتَذَرَ مُتَعَلِّلًا، بِأَنَّ "الثَّمَرَةَ لا تُقْطَفُ قَبْلَ يَناعِها"[1].

كَذَلِكَ هُوَ حالُهُ، حَتَّى وَصَلَتْهُ تِلْكَ الرِّسالَةُ، الَّتي وَقَعَتْ في نَفْسِه مَوْقِعَ الحَيْرَةِ، وأَصابَتْ ضَميرَهُ الدِّينيَّ بِحَرَجٍ؛ وقَدْ صيغَتْ بِلُغَةِ التَّوَسُّلِ، وطُبِعَتْ بِلَهْجَةِ الاسْتِصْراخِ والرَّجاء، أَنْ "أَنْقِذْ دِينَ جَدِّكَ"، وتَوَلَّ قَوْمًا، سَفِينَتُهُمْ بِلا رُبَّانٍ، يَتَهَدَّدُها مَوْجُ الانْحِراف، وحَبائِلُ الفِتْنَة؛ فتَرَدَّدَ فَيْنَةً بَيْنَ طُمُوحِه المُتَوَقِّدِ، وما ظَنَّهُ تَكْليفًا شَرْعِيًّا حاسِمًا، لِيَتَغَلَّبَ هَذا التَّكْليفُ؛ فقَرَّرَ إِجابَةَ الدَّعْوَةِ، مُتَّخِذًا أَحَدَ أَكْثَرِ قَراراتِ حَياتِه إِيلامًا، وهُوَ مُغادَرَةُ النَّجَفِ الأَشْرَف، الَّذي ظَلَّ عالِقًا في وِجْدانِه؛ فيَمَّمَ شَطْرَ وَطَنِه، قاصِدًا بَلْدَةَ خِرْبَةِ سِلْمَ اللُّبْنانِيَّةَ، العامِليَّةَ، في عام 1389هـ - 1969 م. وهِيَ الَّتي أَرْسَلَتْ إِلَيْه رِسالَتَها "الذَّكِيَّةَ"، كَما كانَ يَقُولُ، حامِلَةً مَعَها سَبْعَةً وثَلاثِينَ تَوْقِيعًا مِنْ وُجَهائِها. وخِرْبَةُ سِلْمَ بَلْدَةٌ جَمِيلَةٌ مِنْ أَعْمالِ قَضاءِ بِنْتِ جُبَيْلَ، تَبْعُدُ عَنِ العاصِمَةِ بَيْرُوتَ مِئَةَ كلم تَقْرِيبًا، وتَفْصِلُها كِيلُو مِتْراتٍ قَلِيلَة، عَنِ الحُدُودِ الجَنُوبِيَّةِ، مَعَ فِلَسْطِينَ المُحْتَلَّة.

نَشاطُهُ في جَبَلِ عامِلَ

عادَ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى جَبَلِ عامِلَ، وفي جُعْبَتِه بَرْنامَجُ عَمَلٍ شامِلٍ، تَجِدُ مُقْتَطَفاتٍ مِنْهُ في مُدَوَّناته، تَحَدَّدَتْ في هَذا البَرْنامَجِ، أَوْلَوِيَّاتٌ وخُطُوطٌ عَرِيضَةٌ، تَنُمُّ عَنْ وَعْيٍ مُبَكِّرٍ، بِأَهَمِّيَّةِ العَمَلِ العامِّ، وعَنْ عَقْلٍ مُتَنَوِّرٍ مُنَظَّم، يُولِي عِنايَةً إِيجابِيَّةً بِمُحِيطِه، إِزاءَ نَمَطٍ تَقْلِيدِيٍّ، غَيْرِ مُتَفاعِلٍ هَيْمَنَ عَلَى المُجْتَمَعِ الدِّينِيِّ، آنَذاكَ[2]. وفي أَوْراقِه المُتَناثِرَة، مَلامِحُ إِحْساسٍ بارِزٍ بِضَرُورَةِ بَلْوَرَةِ اتِّجاهٍ عُلَمائِيٍّ فاعِلٍ، دَعا إِلَيْه مُنْذُ بِدايَةِ سَبْعِينِيَّاتِ القَرْنِ الماضِي؛ وفي مُذَكَّراته، وإِفاداته أَيْضًا، حِواراتٌ عَدِيدَةٌ حَوْلَ أَفْكارِ هَذا المَضْمُونِ، جَمَعَتْهُ إِلَى أَقْرانٍ لَهُ، تَمَثَّلَ مُعْظَمُها، فِيما ذَكَرَهُ، بِأَمْرَيْنِ:

(1) السَّراب، ص 28.
(2) السَّراب، ص 29.

الأَوَّلُ: مُقاسَمَتُهُ الطَّبَقاتِ الشَّعْبِيَّة هُمُومَها، ومُشارَكَتُهُ فيها، مُشارَكَةً تَصِلُ حَدَّ الانْخراطِ الكامِلِ؛ ولَطالَما رَدَّدَ دَعْوَةً لِلْعُلَماءِ والقِياداتِ، بِأَنْ تَنْزِلَ مِنْ بُرْجِها العاجِيِّ.

الثَّاني: الاهْتِمامُ بِاللَّوْنِ الإِسْلامِيِّ لِلْعَمَلِ؛ وفي بَعْضِ كِتاباتِهِ المُتَفَرِّقَةِ، نَماذِجُ تُطابِقُ بَعْضَ ما هُوَ مَعْمُولٌ ومُتَّبَعٌ في النَّشاطِ الإِسْلامِيِّ، في أَيَّامِنا الحاضِرَةِ.

في بِدايَةِ السَّبْعِينات، باشَرَ عَمَلِيَّةً واسِعَةً في مُحيطِهِ لِنَشْرِ الوَعْيِ الإِسْلامِيِّ في صُفُوفِ الفِئاتِ الشَّابَّة، ودَخَلَ في نِقاشاتٍ هادِفَةٍ مَعَ الشَّرِيحَةِ المُثَقَّفَة، لَكِنَّ انْتِشارَ الأَيْدِيُولُوجِيَّاتِ اليَسارِيَّة، وتَصاعُدَ المَدِّ القَوْمِيِّ آنَذاكَ، أَحْبَطَ آمالَهُ الَّتي عَقَدَها عَلَى الجِيلِ المُثَقَّف، في أَنْ يَنالَ مُساندَتَهُ، ويَكُونَ إِلَى صَفِّه؛ ومَعَ ذَلِكَ أَصَرَّ عَلَى المُحاوَلَة، فحَرَّضَ أُولَئِكَ عَلَى التَّحَلِّي بِرُوحٍ نَقْدِيَّة، تَنْأَى بِهِمْ عَنِ الاسْتِسْلامِ الأَعْمَى، لِما يُزَوِّدُونَهُ مِنْ أَفْكارٍ، بَعْضُها جاهِزٌ مُسْتَوْرَدٌ، فِيما يَتَنَكَّبُونَ طَرِيقَ المَوْضُوعِيَّة، والتَّجَرُّدِ في النَّقْد، لَوِ اتَّصَلَ الأَمْرُ بِالدِّينِ، والتُّراثِ الخاصِّ[1].

بَعْدَ ذَلِكَ، انْصَرَفَ إِلى الجِيلِ الطَّالِعِ، يُولِي عِنايَةً خاصَّةً بِاليافِعِينَ، مِمَّنْ لَمْ يَجُوزُوا بَعْدُ إِلى سِنِي الشَّباب؛ فاجْتَذَبَهُمْ إِلى مَجْلِسِه، وتَحَمَّلَ صُنُوفَ عَبَثِهِمْ وشَقاوَتِهِمْ، واحْتَضَنَهُمْ أَيَّما احْتِضان؛ أَثْمَرَ ذَلِكَ بَعْدَ زَمَنٍ، ثُلَّةً مَعْرُوفَةً مِنَ العامِلِينَ، كانَ لِبَعْضِها شَأْنٌ مَشْهُودٌ، أَوْ عُرِفَتْ لَهُ الرِّيادَةُ عَلَى صُعُدٍ إِسْلامِيَّةٍ مُخْتَلِفَة، ثَقافِيَّةٍ، ودِينِيَّة، وسِياسِيَّة... وجِهادِيَّة، في أَوْقاتٍ لاحِقَة.

شَهِدَ مَنْزِلُهُ في المَراحِلِ الأُولَى، لِظُهُورِ المَدِّ الإِسْلامِيِّ في لُبْنانَ، في النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنْ عَقْدِ السَّبْعِينات، لِقاءاتٍ عِدَّةً مُهِمَّة، جَمَعَتْهُ إِلى عُلَماءَ عامِلِيِّينَ، مِمَّنْ آلَتْ إِلَيْهِمُ القِيادَةُ الرُّوحِيَّةُ والسِّياسِيَّةُ في آوِنَةٍ أُخْرَى؛ وقَدْ أَثْبَتَتْ مُساهَماتُهُ فِيها، مُواكَبَتَهُ الجادَّةَ لِلإِرْهاصاتِ الأُولَى لِلصُّعُودِ الشِّيعِيِّ،

(1) السَّراب، ص 29.

ولبدايات تَرَسُّخ التَّيَّار الدِّينيِّ فيه. ولَطالَما تَكَرَّرَتْ في هَذه الاجْتماعات - بِحَسب ما أَوْرَدَ في مُذَكَّراته - آراؤُهُ عَنْ أَهَمِّيَّة: الدِّقَّة في تَحْديد الأَهْداف، واخْتيار القادَة، وتَوْحيد الجُهُود، ونَبْذ الأَنا... واعْتبار ذَلكَ مِنْ أَرْكان النَّجاح والاسْتمْرار؛ ورُبَّما كانَ لحَزْمه في التَّقَيُّد، بمَعاييرَ واضحَة، ما باعَدَ بَيْنَهُ، وبَيْنَ الانْخراط المُباشر، في أُطُر العَمَل وتَنْظيماته، الَّتي بَدَأَتْ بالبُرُوز آنَذاكَ، على الرُّغْم مِنْ عَدَم مُعارَضَته لَها، ومَحْضها التَّأْييدَ، في كَثير مِنَ الأَحْيان[1].

عاصَرَ أَحْداثًا عدَّةً مُنْذُ دُخُوله إلَى لُبْنانَ، منْها ما كانَ لَهُ رَأْيٌ فيها، أَوْ نَصيحَةٌ، أَوْ تَوْجيهٌ، ومنْها ما أَعْرَضَ عَنْهُ، لتَعارُضه مَعَ قَناعاته المَبْدَئيَّة. وإنَّ أَوَّلَ ما صادَفَهُ في هَذا الصَّدَد، انْقسامُ السَّاحَة الشِّيعيَّة في العام 1969 حَوْلَ تَأْسيس المَجْلس الإسْلاميِّ الشِّيعيِّ الأَعْلَى، حينَ تَوَزَّعَت الآراءُ بَيْنَ مُؤَيِّد، ومُعارض، وشاجب؛ فعَرَضَ وَساطَتَهُ، إنَّما قَبْلَ أَنْ يُفاجَأَ، بأَنَّ ما ظَنَّهُ تَبايُناتٍ جَوْهَريَّةً، هُوَ جُزْءٌ مِنْ مُناوَراتٍ سياسيَّة، لَمْ يَتَوَقَّعْ لرُوحانيِّينَ الانْخراطَ فيها.

في السَّبْعينات أَيْضًا، بادَرَ إلَى اقْتراح صيَغ أُخْرَى للْعَمَل العُلَمائيِّ، منْها: تَشْكيلُ مَجْلس مُسْتَقلٍّ للْعُلَماء المُسْلمينَ، وتَأْسيسُ بَيْت مال مُوَحَّد للْمُسْلمينَ، تُجْمَعُ فيه الحُقُوقُ الشَّرْعيَّةُ، وتُشْرفُ عَلَيْه لَجْنَةٌ مَوْثُوقَةٌ، مِنْ أَجْل تَحْرير العُلَماء وطُلَّاب العُلُوم الدِّينيَّة، مِنْ تَبعات تَدَبُّر أُمُور المَعيشَة، فيما كانَ أَوَّلَ الشَّاجبينَ والمُعارضينَ لرَبْط المُؤَسَّسَة العُلَمائيَّة بالسُّلْطَة السِّياسيَّة الرَّسْميَّة. ولَمْ تَكُنْ تَجْربَتُهُ تلْكَ، حَتَّى ذَلكَ الحين، بمَنْأَى عَنِ الصِّعاب؛ فَقَدْ حالَت الحزْبيَّةُ الضَّيِّقَةُ، أَوِ الفَرْديَّةُ المُغْرقَةُ، دُونَ اسْتغْلال النُّخْبَة لأَغْراض شَعْبيَّة.

(1) السَّراب، ص 30.

يَذْكُرُ أَنَّهُ قادَ بِنَفْسِه، في العام 1972، حَمْلَةً لِتَهْيِئَةِ أَسْبابِ الصُّمُودِ في بَعْضِ مَناطِقِ الجَنُوبِ، المُهَدَّدِ آنَذاكَ، بِعُدْوانٍ صِهْيُونِيٍّ مُتَواصِلٍ، مِنْها: إِعْدادُ مَلاجِئَ آمِنَةٍ لِلْمَدَنِيِّينَ، وقَدْ عَبَّأَ لِذَلِكَ رَهْطًا مِنَ الشَّبابِ النَّاشِطِ في حِينِه، لَكِنْ مالِكِي زِمامِ تِلْكَ المَرْحَلَةِ كانُوا أَوَّلَ مَنْ أَعاقَها، وهُمْ مَنْ باشَرَهُمْ بِالرِّهانِ، أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنَ الصِّراعاتِ النَّظَرِيَّةِ العَقِيمَةِ إِلى النِّضالِ المَيْدانِيِّ المُثْمِرِ[1]. ومِمَّا يَذْكُرُهُ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضًا، أَنَّهُ باشَرَ اتِّصالاتٍ واسِعَةً لِلإِعْدادِ، لِتَحَرُّكٍ واسِعٍ، يُطالِبُ بِرَفْعِ الحِرْمانِ عَنْ جَبَلِ عامِلَ، ويَدْعُو إِلى مُعالَجَةِ أَوْجُهِ القُصُورِ المُزْمِنِ، الَّتِي تُصِيبُ، فِيما تُصِيبُ، القُدْرَةَ عَلَى الثَّباتِ والبَقاءِ في الأَرْضِ؛ رُبَّما كانَ ذَلِكَ في أَعْقابِ اجْتِياحِ 1972، وقَدْ أَحَسَّ لِمُبادَرَتِه وَقْعًا فاتِرًا، في أَسْماعِ مَنْ حَمَلَها إِلَيْهِمْ في بَيْرُوتَ، لَكِنْ لَمْ يُضِرْهُ، وإِنْ أَدْهَشَهُ، أَنَّ ما طَرَحَهُ نُفِّذَ فِعْلًا، دُونَ تَنْسِيقٍ مَعَهُ.

نَشاطاتُهُ العامَّةُ

أ. بِناءُ مُقَوِّماتِ الصُّمُودِ

شَغَلَ حِرْمانُ جَبَلِ عامِلَ قَلْبَ السَّيِّدِ عَبْدِ المُحْسِنِ وعَقْلَهُ، فتَحَوَّلَتِ الدَّعْوَةُ إِلى إِنْمائِه، ونَفْضِ غُبارِ الإِهْمالِ عَنْهُ، لازِمَةً في قَوْلِه وعَمَلِه. وكَمْ بَلَغَ مِنْهُ الأَسَفُ حَدًّا وَقْتَ كانَتْ تَرْتَدُّ نِداءاتُهُ عَنْ آذانٍ صَمَّاءَ وعُقُولٍ مُعْرِضَةٍ؛ وحِينَ كانَ يَقِفُ عَلَى مُفارَقاتٍ بادِيَةٍ بَيْنَ القَوْلِ والفِعْلِ! مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَخَلَّ يَوْمًا عَنْ مَقُولَتِه المِحْوَرِيَّةِ، مُذْ وَفَدَ إِلَى لُبْنانَ، بِأَنَّ الجُهُودَ، كُلَّ الجُهُودِ، يَنْبَغِي أَنْ تَلْتَقِيَ عَلَى بِناءِ مُقَوِّماتِ صُمُودِ الإِنْسانِ الجَنُوبِيِّ، ورَبْطِه بِأَرْضِه؛ فالمُعادَلَةُ الَّتِي عَرَفَها، قامَتْ عَلَى أَنَّ تَحْرِيرَ ابْنِ الجَنُوبِ مِنَ الفاقَةِ، يَمْنَعُهُ مِنْ إِخْلاءِ أَرْضِه، ويُوصِدُ أَبْوابًا دُونَ العَدُوِّ، الَّذِي يُرِيدُ الأَرْضَ خالِيَةً لَهُ[2].

(1) السَّراب، ص 31.
(2) السَّراب، ص 39.

ب. إنْشاءُ جَمْعيَّة التَّضامُن الإسْلاميّ

لَمْ يَكْتَفِ بِهَذا الاسْتِنْهاضِ الدَّائِمِ لِلْقِيادات وأُولِي الأَمْر، بَلْ جَنَّدَ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّة، وطاقَة ذاتيَّة؛ فأَنْشَأَ في العام 1976 رابِطَةَ الشَّبابِ المُؤْمِن، ثُمَّ جَمْعيَّةَ التَّضامُنِ الإسْلاميِّ الَّتي تَحْمِلُ رُخْصَةً عامَّةً بِالنَّشاط، عَلَى كامِلِ الأَراضِي اللُّبْنانيَّة/ وحاوَلَ مِنْ خِلالِها تَعْبِئَةَ المَوارِد، لانْطِلاقَة ذات خُطُوات مَحْسُوبَة نَحْوَ مَشْرُوعات ثَقافيَّة، واجْتِماعيَّة عَديدَة؛ فأَنْجَزَ ما أَنْجَزَ: مَكْتَبَةً عامَّةً، بِئْرًا ارْتِوازِيَّةً، تَعاوُنِيَّاتٍ زِراعيَّةً، مَعاهِدَ حِرَفيَّةً...؛ وخَطَّطَ لِمَشْرُوعات أُخْرَى، كَبِناءِ مَساكِنَ تَعاوُنِيَّة، وإِنْشاءِ مُسْتَشْفَى...، لَكِنَّ الظُّرُوفَ حالَتْ دُونَ اسْتِكْمالِها.

ج. تَأْسِيسُ حَوْزَةٍ عِلْمِيَّة

أَسَّسَ في بِدايَةِ الثَّمانِينات حَوْزَةً عِلْمِيَّةً، طَمِحَ مِنْ خِلالِها لِتَكْوِينِ نَواةٍ لِنَهْضَةٍ عِلْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ في جَبَلِ عامِلَ؛ وقَدْ أَفْرَغَ وُسْعَهُ لإِنْجاحِها؛ فاسْتَمَرَّتْ لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ سَنَوات، وانْخَرَطَ فِيها رَهْطٌ مِنَ الطُّلَّاب، الَّذِينَ تَأَلَّقَ بَعْضُهُمْ، وقُدِّرَ لِهَذِهِ الحَوْزَةِ مُسْتَقْبَلٌ مُزْدَهِرٌ، لَوْلا أَنْ مَنَعَتِ التَّطَوُّراتُ الأَمْنِيَّةُ والسِّياسِيَّةُ القاهِرَةُ، اسْتِمْرارَها[1].

صِفاتُهُ

عُرِفَ بِالتَّقْوَى والوَرَع، وبَساطَةِ العَيْش، ونُزُوعٍ مُعْتَدِلٍ إِلى الزُّهْد، وبِتَحَفُّظٍ، مُفْرِطٍ أَحْيانًا، في إِنْفاقِ الحُقُوقِ الشَّرْعِيَّة؛ فصارَ إِلى ما دُونَ الوَسَطِ مِنْ حَياةِ أَهْلِ زَمانِه؛ وقَدْ أَضْفَى كُلُّ ذَلِكَ عَلَى شَخْصِيَّتِه، مَسْحَةً خاصَّةً، شَدَّتْ إِلَيْها أَنْظارَ المُؤْمِنِينَ، وجَعَلَتْ لَهُ العَدِيدَ مِنَ المُرِيدِينَ، مِمَّنْ قَصَدُوهُ التِماسًا لِعِلْمِه، وتَيَمُّنًا بِسِيرَتِه. كانَ أَيْضًا، كَثِيرَ الأَناة، مَوْفُورَ الوَقارِ، شَدِيدَ الاهْتِمامِ بِمَصالِحِ النَّاس؛ صَبُورًا عَلَى الأَذَى، ورُبَّما مِنْ أَقْرَبِ

(1) السَّراب، ص 39.

المُقَرَّبينَ إِلَيْه؛ وقَدْ عَرَفَ فيه مُريدُوهُ وعارِفُوهُ إلى هَذه الفَضائِل، فَضائِلَ يَسْتَرْجِعُونَها، كُلَّما اسْتَعادُوا ذِكْراهُ، وتَلَمَّسُوا أَثَرَهُ، ورُبَّما اخْتَصَرُوها بالصِّدْق، حَتَّى شَجاعَةٍ ظاهِرَةٍ؛ وعُمْقِ نَظَرٍ، حَتَّى الحِكْمَة؛ وصَفاءِ سَرِيرَةٍ، حَتَّى غايَةِ الإِخْلاص[1].

يَقُولُ الشَّيْخُ حَسَن حُسَيْن عَوَّاد، في مُقابَلَةٍ أَجْرَيْتُها مَعَهُ، حَوْلَ سِيرَةِ السَّيِّد عَبْد المُحْسِن رَحِمَهُ اللهُ: "لَقَدْ عَرَفْتُ المُقَدَّسَ السَّيِّدَ عَبْدَ المُحْسِن فَضْلِ الله عَنْ كَثَب، فَكانَ يَسْتَوْقِفُني طَوِيلًا بتَواضُعه، وتُرابِيَّته؛ كَما كانَ يَسْتَوْقِفُني طَوِيلًا بتَعَبُّده، ورَوْحانِيَّته، آناءَ اللَّيْلِ وأَطْرافَ النَّهار. كَما كانَ يَسْتَوْقِفُني بزُهْده، وتَرَفُّعه عَن المادِّيَّات، حَتَّى عَنْ بَعْض حَلالها، ناهيكَ بِما هُوَ عالَمُ الشُّبُهات؛ ولا نَذْكُرُ هُنا المُحَرَّمات؛ لأَنَّ سَماحَتَهُ كانَ بَعِيدًا عَنْها؛ يَعْصِمُهُ عِلْمُهُ، وتَعْصِمُهُ تَقْواهُ، وتَعْصِمُهُ روحانِيَّتُهُ وعِرْفانُهُ. وقَدْ كانَتْ تِلْكَ الصِّفاتُ، صِفاتٍ تَمَيَّزَ بِها، وعُرِفَ بِها في أَرْقَى مَصاديقِها.

لا نَسْتَطيعُ إِلَّا أَنْ نُؤَرِّخَ لِسَماحَة السَّيِّد عَبْد المُحْسِن فَضْل الله (رِضْوانُ الله عَلَيْه)، لأَنَّهُ كانَ مَدْرَسَةً، وظاهِرَةً في عالَم القِيَم، بِمَنْطِقه، بِنَظَراته، بِمِشْيَته، بِمَجْلِسه، في جِهاده، في أَمْرِه بِالمَعْرُوف، ونَهْيِه عَنِ المُنْكَر. كانَ أُمْثُولَةً صالِحَةً لأَهْلِ العِلْم، وكانَ تَجْسِيدًا حَيًّا لِمَسْلَك الأَنْبِياء، والأَئِمَّة، ومَنْهَجِيَّتِهِمْ"[2]. ويَقُولُ الشَّيْخُ عَلي كَوْراني، في مُقابَلَةٍ أَجْرَيْتُها مَعَهُ، حَوْلَ سِيرَةِ السَّيِّد عَبْد المُحْسِن: "عَرَفْتُهُ لِبِضْع سَنَوات، وكانَتْ فيه ميزاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لافِتَةٌ. ميزاتُهُ قُدِّسَ سِرُّهُ أَنَّهُ كانَ طَبيعِيًّا، لَيْسَ مُعَقَّدًا؛ البَساطَةُ في الشَّخْصِيَّة، وأَنْ لا يَكُونَ مُعَقَّدًا، هَذه نِعْمَةٌ، إِمَّا تَكْوِينِيَّة، أَوْ بِإِرادَة الإِنْسان. وبَعْضُ النَّاس تَراهُمْ مِنْ بَساطَتِهِم شَلَّالَ ماء صاف نَقِيٍّ، وخَطًّا مُسْتَقيمًا. بَعْضُهُمْ تَجِدُهُمْ مِثْلَ شِلَّة الخيطان، الَّتي لا تَعْرِفُ طَرَفَ الخَيْطِ مِنْها، مِنْ وسَطِه، مِنْ آخِرِه، تَعْقيد؛ الحَمْدُ لله هُوَ مِنْ هَذِهِ النَّوْعِيَّة، مِنْ أَصْحابِ

(1) السَّراب، ص 41.
(2) أَجْرَيْتُ هَذِهِ المُقابَلَةَ بِتاريخ 9 حَزيران (6) 2010 م.

الشَّخْصيَّاتِ الصَّافِيَةِ.

وكانَ بِطَبْعِهِ يُحِبُّ الآخَرِينَ، بَشُوشًا، خَلُوقًا، يَهْتَمُّ بِهِمْ. نَحْنُ كُنَّا أَصْغَرَ مِنْهُ سِنًّا؛ إذا جاءَ السَّيِّدُ عَبْدُ المُحْسِن إلى المَدْرَسَةِ نَجْتَمِعُ حَوْلَهُ، نَأْنَسُ بِهِ، ويَسْأَلُ عَنْ أَحْوالِنا، وعَنْ أَوْضاعِنا، ونَسْتَفِيدُ مِنْهُ أَخْلاقِيًّا"[1].

مُعاناتُهُ مَعَ أَبْناءِ طَبَقَتِهِ

هَذا الاتِّجاهُ الرُّوحِيُّ العامِلُ الَّذي تَحَلَّى بِهِ حَتَّمَ عَلَيْهِ، في تِلْكَ الآونَةِ، الابْتِعادَ عَنِ الأَضْواءِ، وتَحاشِي المُنافَسَةِ؛ فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ السَّلامَةِ في أَمْرِ الآخِرَةِ، ما دامَتْ أَيُّ مُنافَسَةٍ، في عُرْفِهِ، شَأْنًا مِنْ شُؤُونِ الدُّنْيا. ولَطالَما آذَتْهُ أَحْوالٌ مِنَ التَّزاحُمِ، غَيْرِ المَشْرُوعِ، وأَوْدَتْ بِهِ إِلَى انْكِفاءٍ نِسْبِيٍّ، مَوْسُومٍ بِالأَسَفِ والحُرْقَةِ، وافْتِقادِ المَنْدُوحَةِ؛ وأَكْثَرُ ما عابَ عَلَى بَعْضِ أَبْناءِ العِلْمِ، إِقْبالُهُمْ عَلَى الدُّنْيا، وإِيغالُهُمْ في دُرُوبِها، وطَلَبُهُمْ مَغانِمَها بِكُلِّ يَدٍ؛ وقَدْ أَضَرَّتْ بِهِ ضُرُوبُ المُزاحَمَةِ تِلْكَ أَيَّما ضَرَرٍ، وأَلْقَتْ في سَبِيلِهِ عَوائِقَ وعَثَراتٍ، آثَرَ أَنْ يَحِيدَ عَنْها، فلا يَتَمادَى في خُصُومَةٍ، أَوْ يَخُوضَ في نِزاعٍ عَلَى مَكانَةٍ، أَوْ رُتْبَةٍ، أَوْ مَنْفَعَةٍ، مَهْما كانَتْ، كَيْ لا يَنْحازَ إِلَى فِئاتِ المُتَنازِعِينَ، أَوْ يُذْكَرَ بَيْنَهُمْ.

في أَحادِيثِهِ رِواياتٌ مُخْتَلِفَةٌ عَنْ مَرارَاتِ العَلاقَةِ مَعَ أَبْناءِ طَبَقَتِهِ، طَبْعًا ما خَلا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُفْسِدْ خِلافُ الرَّأْيِ وُدَّهُمْ، وعَقَدَ العَزْمَ عَلَى أُخُوَّتِهِمْ أَبَدَ العُمُرِ. لَكِنْ لَمْ تَنْهَزِمْ فِيهِ رَغْبَةٌ كامِنَةٌ، في الانْخِراطِ بِمَجْرَى الحَياةِ العامَّةِ، حالَ دُونَها ظُرُوفٌ غَيْرُ مُؤاتِيَةٍ، حَتَّى أَعادَها فَجْرُ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ في إِيرانَ، إِلى تَوَثُّبِ البِداياتِ.

(1) أَجْرَيْتُ هَذِهِ المُقابَلَةَ مَعَ سَماحَةِ الشَّيْخِ عَلِي كَوْرانِي في مَمْلَكَةِ البَحْرَيْنِ، في 16 آذار 2010 م.

الثَّوْرَةُ الإسْلامِيَّةُ في إيرانَ وفِلَسْطِينَ

خَلَّفَت الثَّوْرَةُ الإسْلامِيَّةُ في إيرانَ عَميقَ الأَثَرِ في وِجْدانِه، لَكَأَنَّهُ عَلَى وَعْدٍ مُسْبَقٍ مَعَها، أَوْ أَنَّها جاءَتْ عَلَى طِبْقِ ما ارْتَسَمَ في سَرِيرَتِه، ودارَ في خَلَدِه، في أَنْ يَسْتَعيدَ الإسْلامُ مَجْدَهُ، وتَعْرِفَ الأُمَّةُ هُوِيَّتَها ومَكانَتَها؛ فتابَعَ أَحْداثَها بِلَهْفَةٍ وشَغَفٍ، وعَرَفَ فيها، إِثْرَ انْتِصارِها، نَمُوذَجًا يُحْتَذَى، يَصِحُّ القِياسُ عَلَيْه، لا المُطارَحَةُ فيه؛ وهَذا ما تَمَثَّلَهُ، وجَمَعَ خُيُوطَهُ في مُواجَهَتِه اللَّاحِقَةِ مَعَ الاحْتِلالِ الصِّهْيُونِيِّ لِجَنُوبِ لُبْنانَ[1].

وقَدْ أَيَّدَ بِقُوَّةٍ - مُنْذُ اللَّحَظاتِ الأُولَى، ومِنْ مَوْقِعِه الفِقْهِيِّ المَعْرُوفِ - قِيادَةَ الإمامِ الخُمَيْنِيِّ قُدِّسَ سِرُّهُ، وتَصَدِّي الفَقِيهِ العادِلِ لإمامَةِ الأُمَّة. وقَدْ عُرِفَ عَنْ مَجالِسِه، أَنَّها كانَتْ مَحَلًّا للدِّفاعِ عَنِ الثَّوْرَةِ الإسْلامِيَّة، والمُحاجَجَةِ في أَحَقِّيَّتِها وشَرْعِيَّتِها، إزاءَ أَوْساطٍ دِينِيَّةٍ تَنَكَّرَتْ للثَّوْرَةِ بَعْدَ انْتِصارِها؛ بَلِ اسْتَهْجَنَتْ أَنْ تَقُومَ قائِمَةُ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ فتَتَصَدَّى لأَفْعالِ السُّلْطَة، وتُمارِسُ كُلَّ صَلاحِيَّاتِ الحاكِمِ في الإصْلاحِ والجِهادِ وبِناءِ الشَّأْنِ العامِّ. وَما مَواقِفُهُ الجِهادِيَّةُ المُؤَيِّدَةُ، عِنْدَ انْتِصارِ الثَّوْرَةِ الإسْلامِيَّة، بِقِيادَةِ القائِدِ المُلْهَمِ، وَالإمامِ المُقَدَّسِ، السَّيِّدِ رُوحِ اللهِ المُوسَوِيِّ الخُمَيْنِيِّ (نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَهُ)، إِلَّا دَلِيلًا عَلَى نُصْرَةِ الحَقِّ، وَرَفْعِ رايَةِ المَظْلُومِينَ. وَما ثَباتُهُ في جِهادِ العَدُوِّ الصِّهْيُونِيِّ، وَتَعَرُّضِ العَدُوِّ لَهُ، بِمُحاوَلاتِ عِدَّةٍ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى، مِنْ مَوْقِعِهِ الفِقْهِيِّ، أَنَّ الفِرارَ مِنْ جِهادِه، كَالفِرارِ مِنَ الزَّحْف.

ممَّا يُذْكَرُ هُنا: جاءَهُ بَعْضُ أَقْرانِه مِنَ العُلَماء، عِنْدَ اشْتِدادِ الأَمْر، وَزِيادَةِ الضَّغْطِ مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ المُحْتَلِّ، وَمَعَ ما يُسَمَّى: «القَبْضَةُ الحَدِيدِيَّةُ» ـ قائِلًا لَهُ بِمَحَبَّةٍ وَإِخْلاصٍ: «أَلا تَرَى إِشْكالًا شَرْعِيًّا فِي بَقائِكَ هُنا تَحْتَ الخَطَرِ ؟!».

فَأَجابَهُ قُدِّسَ سِرُّهُ: «أَلا تَرَى إِشْكالًا شَرْعِيًّا بِالخُرُوجِ مِنْ هُنا؟! إِنَّ القِيادَةَ تَبْقَى فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ مَوْقِفًا داعِمًا وَمُوَجِّهًا، وَالأَعْمارُ بِيَدِ اللهِ سُبْحانَهُ».

(1) السَّراب، ص 32.

بَنَى قدس سره ذاتَهُ، بِناءً ذاتَ أَبْعادٍ علْميَّةٍ، وَأَدَبيَّةٍ، وَتاريخيَّةٍ، وَفَلْسَفيَّةٍ، وَرُوحيَّةٍ، وَجِهاديَّةٍ. سَعَى لإنْقاذِ السَّاحَةِ الَّتي أَقامَ فيها. رَبَّى بإخْلاصٍ وَصَبْرٍ، بِرُوحٍ أَبَويَّةٍ صادِقَةٍ، صَبَرَ في طَريقِ ذاتِ الشَّوْكَةِ، جاهَدَ بِمَواقِفَ قَلَّ مَثيلُها. وَالجيلُ الَّذي رَعاهُ، لَهُ اليَوْمَ مَواقِعُ في ساحَةِ العَمَلِ وَالجِهادِ، وَكانَ مِنْهُمُ الشُّهَداءُ، فَضْلًا عَنْ رُجوعِ بَعْضِ القِيادات المَيْدانيَّةِ إلَيْه، مِنْ عُلَماءَ وَغَيْرِهِمْ، في بِدايات الصِّراعِ، للاسْتِنارَةِ بِرَأْيِهِ في قَضايا مَصيريَّةٍ، في وَقْتٍ عَزَّ فيهِ الرُّجوعُ، في السَّاحَةِ الجِهاديَّةِ، إلَى أَصْحابِ الرَّأْيِ وَالمَسْؤُوليَّةِ؛ حَتَّى أَنَّ بَعْضَ القِيادات المَيْدانيَّةِ، هَمَسَ في أُذُنَيَّ، بَعْدَ وَفاتِهِ، قائلًا: «أَتَمَنَّى أَنْ أَجِدَ مَنْ يُعْطِيني نِصْفَ ما كانَ يُعْطِي، أَوْ نَأْخُذَ مِنْهُ»[1].

مَواقِفُهُ الجِهادِيَّةُ

لَمْ تَكُنْ مُساهَمَتُهُ المُتَقَدِّمَةُ والرَّائِدَةُ في مُواجَهَةِ الاحْتِلالِ، إلَّا الصِّيغَةَ الأُخْرَى لِهَذا المَوْقِفِ المَبْدَئِيِّ الفِكْرِيِّ، العَقائِديِّ، الفِقْهِيِّ، الَّذي التَزَمَهُ دائِمًا؛ بَلْ أَعْلَنَهُ قَبْلَ عُقُودٍ. وفي قُصاصَةٍ صَغيرَةٍ، عُثِرَ عَلَيْها بَيْنَ أَوْراقِهِ، يَعُودُ تاريخُها إلَى العامِ 1969، مَلامِحُ مُبَكِّرَةٌ لِهَذا المَوْقِفِ[2]. سُئِلَ: ما رَأْيُكُمْ في التَّحَرُّكاتِ الفِدائِيَّةِ (الفِلَسْطِينِيَّةِ)؟ وما رَأْيُ الدِّينِ بِذَلِكَ؟

فَأَجابَ: "بِرَأْيي، إنَّها تَدُقُّ بِعُنْفٍ أَبْوابَ التَّاريخِ، وَأَخالُها سَتُكَلَّلُ في يَوْمٍ بِالعِزِّ والنَّصْرِ؛ وما حَرَكَةُ الفِدائِيِّينَ إلَّا جُزْءٌ مِنْ كُلٍّ. والسُّؤالُ عَنْ مَوْقِفِ الدِّينِ مِنْ قَضِيَّةِ فِلَسْطِينَ، لَمِمَّا يَبْعَثُ في نَفْسي الاسْتِغْرابَ! أَلَمْ تُصْبِحْ فِلَسْطِينُ جُزْءًا مِنْ كِيانِ كُلِّ مُسْلِمٍ؟! ومَتَى كانَ دِينُنا يُسَلِّمُ يَدَ المَذَلَّةِ؟! فيما هُوَ يَعْمَلُ لِلْعَدْلِ، ويَتَحَفَّظُ عَلَيْهِ، ويَعْمَلُ لِصِيانَةِ العَقيدَةِ والكَرامَةِ؛ وكَلِمَةُ أَعْظَمِ قائِدٍ مِنْ قادَةِ المُسْلِمينَ، الإمامِ عَلِيٍّ c، لَمْ تَزَلْ تَدْفَعُ الأَجْيالَ، لِلْعَمَلِ

(1) مِنَ الكَلِمَةِ الَّتي أَلْقاها السَّيِّد عَبْد الصَّاحِب فَضْل الله، في الاحْتِفالِ التَّكْرِيميِّ لِوالِدِه، السَّيِّد عَبْد المُحْسِن فَضْل الله (طابَ ثَراهُ)، بِمُناسَبَةِ مُرُورِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا عَلَى رَحيلِه؛ وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ الواقِعَ فيهِ 28 المُحَرَّم الحَرام (1) 1427 هـ المُوافِق لِـ 27 شُباط (2) 2006 م. فِي «قاعَةِ الزَّهْراءِ عليها السلام»، فِي مِنْطَقَةِ «زُقاقِ البِلاطِ»، مِنَ العاصِمَةِ «بَيْرُوتَ».

(2) السَّراب، ص 33.

عَلَى صَوْنِ الكَرامَةِ، بِكُلِّ جُهْدٍ:

"ما غُزِيَ قَوْمٌ في عُقْرِ دارِهِمْ، إلَّا ذَلُّوا".

فَهَلْ نَحْنُ حَقًّا مُسْلِمُونَ؟

هُنا يَكْمُنُ الدَّاءُ، وسِرُّ الهَزِيمَةِ".

مَواجَهَةُ العَدُوِّ، وصُمُودُهُ، خِلالَ سَنَواتِ الاحْتِلالِ

مُنْذُ بِدايَةِ العُدْوانِ الصِّهْيُونِيِّ عَلَى لُبْنانَ في العام 1982، كانَ لِلْمُقَدَّسِ السَّيِّد عَبْد المُحْسِن فَضْل الله مَواقِفُ فِقْهِيَّةٌ ظَهَرَتْ آثارُها بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ عَلَى مَسارِ الوَقائِعِ. فأَثْناءَ حِصارِ بَيْرُوتَ، عامَذاكَ، أَفادَ قِياداتٍ وَفَدَتْ إِلَيْهِ لِلْمَشُورَةِ حَوْلَ خِياراتِ المُواجَهَةِ، فِيما لَو اجْتاحَتِ القُوَّاتُ الإِسْرائِيلِيَّةُ الضَّاحِيَةَ الجَنُوبِيَّةَ؛ أَفادَها بِحَتْمِيَّةِ المُواجَهَةِ، لَكِنْ مَعَ رَسْمِ تَحالُفاتٍ مَيْدانِيَّةٍ مَأْمُونَةٍ، وذاتِ مَعْنًى، وبِأُسْلُوبٍ يَسْمَحُ بِادِّخارِ جُزْءٍ مِنَ الطَّاقاتِ الجِهادِيَّةِ وتَعْبِئَتِها لِلْمَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ.

رُبَّما لأَنَّهُ قُدِّسَ سِرُّهُ مِنْ أَوائِلِ مَنْ وَعَوْا أَهَمِّيَّةَ تَنْظِيمِ حَرْبِ كَرٍّ وفَرٍّ، طَوِيلَةِ الأَمَدِ ضِدَّ الاحْتِلالِ[1]. وبَعْدَ اسْتِقْرارِ الغُزاةِ في المَناطِقِ الجَنُوبِيَّةِ، آثَرَ الإِقامَةَ الدَّائِمَةَ في جَبَلِ عامِلَ المُحْتَلِّ، عَلَى خِلافِ ما دَأَبَ عَلَيْهِ في سَنَواتِهِ السَّابِقَةِ، بَعْدَ أَنِ اقْتَطَعَتِ الإِقامَةُ في بَيْرُوتَ شَطْرًا مِنْ وَقْتِهِ؛ وقَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ ذَلِكَ رُضُوخٌ لِتَكْلِيفٍ شَرْعِيٍّ يُمْلِي عَلَيْهِ البَقاءَ.

في العام 1983، رَعَى قُدِّسَ سِرُّهُ في دارَتِهِ لِقاءاتٍ عُلَمائِيَّةً مُوَسَّعَةً، بَحَثَتْ في سُبُلِ تَصْعِيدِ المُواجَهَةِ الشَّعْبِيَّةِ، أَهَمُّها إِثْرَ اعْتِقالِ الشَّيْخِ الشَّهِيدِ راغِبِ حَرْبٍ في آذارِ 1983، وبَعْدَ اسْتِشْهادِهِ في العامِ 1984؛ كَما قَدَّمَ مُساندَةً مُباشِرَةً لِلْعُلَماءِ الَّذِينَ تَعَرَّضُوا لِقَمْعِ الاحْتِلالِ ومُضايَقاتِهِ. ويَذْكُرُ مُتابِعُو تِلْكَ المَرْحَلَةِ، أَنَّ مَنْزِلَهُ في خِرْبَةِ سِلْمَ، أَصْبَحَ مَحَلًّا دائِمًا، تَتَقاطَرُ

(1) السَّراب، ص 33.

إِلَيْه القِيادَاتُ الدِّينيَّةُ والمَحَلِّيَّةُ للتَّداوُلِ في شُؤُونِ المُواجَهَةِ والتَّخْطِيط، للتَّحَرُّكاتِ الشَّعْبِيَّة. ومَعَ تَصاعُدِ وَتيرَةِ الانْتفاضاتِ والمُقاوَمَة، باتَ السَّيِّدُ قدس سره أَبًا رُوحيًّا، ومَصدَرًا شَرْعِيًّا لِلْفَتْوَى لِكَثيرٍ مِنَ المُنْضَوِينَ تَحْتَ لِواءِ المُقاوَمَة، الَّتي لَمْ تَكُنْ قَدْ أَدْرَكَتْ بَعْدُ، شَكْلَها النِّظامِيَّ التَّامَّ الَّذي عَرَفَتْهُ فِيما بَعْدُ[1].

يَقُولُ السَّيِّد عَبَّاس الموسَوِيّ (أبو علي) حَوْلَ سيرَةِ السَّيِّد عَبْد المُحْسِن: "قَرَّرَ - ومِنْ مَوْقِعِ المَسْؤُولِيَّة - أَنْ يَبْقَى صامِدًا في أَرْضِه، مُوَجِّهًا النَّاسَ أَنْ يَصْمُدُوا في أَرْضِهِمْ، ويَسْتَقِرُّوا عَلَيْها، وقَدْ تَعَرَّضَ لأَكْثَرَ مِنْ مُحاوَلَةِ اغْتِيال. وهَكَذا كانَ الصَّامِدَ، الصَّابِرَ، المُحْتَسِبَ، الَّذي عاشَ مَعَ أَبْنائِه أَيَّامَ مِحْنَتِهِمْ، بِكُلِّ ما تَحْمِلُ مِنْ قَساوَةٍ، وقَهْرٍ، واضْطِهاد. وقَدْ فَتَحَ بَيْتَهُ لِلشَّبابِ والنَّاس، واسْتَقْبَلَهُمْ في ظُرُوفٍ مُعَقَّدَة، يَجْثُمُ فيها العَدُوُّ عَلَى أَرْضِ الوَطَن، وبَيْنَ البُيُوت، وفي الشَّوارِع؛ ويَحْتَلُّ الخَوْفُ أَثْناءَها القُلُوبَ، الَّتي في الصُّدُور".

وقالَ: "كانَتْ حَياةُ هَذا السَّيِّد الجَليل عامِرَةً بِالعَطاء والبَرَكَة، بِالإِضافَة إِلى جِهادِه بِمَوْقِفه، ولِسانه، وإِرْشاده. كانَ لَهُ جِهادٌ بِقَلَمِه، فَقَدْ كَتَبَ عِدَّةَ مُؤَلَّفاتٍ ثَمينَة، أَعْطَتْ ثِمارَها الطَّيِّبَة". إِلَى أَنْ قالَ: "وهَكَذا، كانَ بَيْتُ والِدِه، الَّذي كانَ السَّيِّدُ يُقيمُ أَكْثَرَ وَقْتِه فيه، بَيْتَ جِهادٍ لِلْعَدُوِّ، ومُقاوَمَةٍ في وَجْهِ المُحْتَلِّ. وإِذا أَرَدْنا أَنْ نُؤَرِّخَ لِجِهادِ العُلَماء، فَهذا البَيْتُ أَطْهَرُ مَصادِيقِ هَؤُلاءِ العُلَماء"[2].

دَوْرُهُ في أَيَّامِ "القَبْضَةِ الحَدِيدِيَّة"

امْتَدَّتْ خُطُوطُ القِتالِ مَعَ العَدُوِّ، وازْدادَتْ مَعَها ضَراوَةُ القَمْعِ والإِرْهابِ وفي أَقْصَى صُوَرِه، ما سَمَّاهُ الاحْتِلالُ: "القَبْضَةَ الحَدِيدِيَّة"، فاتَّسَعَتْ بِالمُقابِلِ

(1) السَّراب، ص 34.
(2) السَّيِّدُ عَبَّاسُ المُوسَوِيُّ (أَبُو عَلِيٍّ)، في تَرْجَمَةِ المُقَدَّس السَّيِّد عَبْد المُحْسِن، في كِتابِه: «عُلَماءُ ثُغُورِ الإِسْلام»، في الجُزْءِ الأَوَّل، عَلَى الصَّفْحَة 594.

دائِرَةُ المُجاهِدينَ المُتَحَلِّقينَ حَوْلَهُ، يَتَّخِذُونَ مِنْ حِماهُ مَلْجَأً ومَحَطَّةً، بَلْ إِنَّ غالِبِيَّةَ مَجْمُوعاتِ المُقاوَمَةِ الَّتي عَبَرَتْ إِلَى الجَنُوبِ المُحْتَلِّ، وخُصُوصًا إِلَى جَنُوبِ نَهْرِ الليطاني، عَرَفَتْ دارَتَهُ، وأَقامَتْ فيها مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، طالَتْ أَوْ قَصُرَتْ، أَوِ اتَّخَذَتْها مَقَرًّا مؤَقَّتًا. لَقَدْ تَجاوَزَ رَحِمَهُ اللهُ في ارْتِباطِهِ بِالمُقاوَمَةِ، حُدُودًا، تَوَقَّفَ عِنْدَها كَثيرُونَ مِنْ عُلَماءِ جيلِهِ، فلَمْ يَتَطَبَّعْ بِرُوحٍ مُحافِظَةٍ، آلَتْ بِأَقْرانٍ لَهُ إِلَى التَّرَدُّدِ عَنِ الانْدِماجِ بِالمَدِّ الثَّوْرِيِّ المُتَصاعِدِ، وإِلَى التِزامِ تَأْوِيلاتٍ دِينِيَّةٍ حَرْفِيَّةٍ، تَقْصُرُ عَنْ مُسايَرَةِ الأَحْداثِ وسَبْرِ غَوْرِ المَرْحَلَةِ، أَوْ مُواكَبَتِها، فَضْلًا عَنِ المُساهَمَةِ في قِيادَتِها؛ فقَدْ جَمَعَ إِلى حِكْمَتِهِ المَعْرُوفَةِ، جُرْأَةً وإِقْدامًا، حَمَلَتْهُ إِلى رَفْضِ الأَعْرافِ الَّتي أَبْطَأَتْ تَفاعُلَ مُعاصِرينَ لَهُ مَعَ مُتَطَلِّباتِ تِلْكَ الحِقْبَةِ، واسْتِيعابِ تَغَيُّراتِها. وتَرْوِي القِياداتُ المَيْدانِيَّةُ لِلْمُقاوَمَةِ - في تِلْكَ المَرْحَلَةِ، بِكَثيرٍ مِنَ الوَجْدِ - حِكاياتِها عَنْ هَذِهِ العَلاقَةِ، المَجْبُولَةِ بِالعاطِفَةِ والأُبُوَّةِ الَّتي رَبَطَتِ السَّيِّدَ بِهِمْ، وقَدْ زادَتْها المُعاناةُ تَرَسُّخًا وتَوْثِيقًا؛ وبِحَسَبِ أَحَدِ النَّاشِطينَ البارِزينَ آنَذاكَ، فإِنَّ الدَّعْمَ الشَّرْعِيَّ والمَعْنَوِيَّ، الَّذي مَنَحَهُ السَّيِّدُ لِلْمُقاوِمينَ، كانَ مُنْقَطِعَ النَّظيرِ، قِياسًا إِلَى بِيئَتِهِ، والرُّتْبَةِ العِلْمِيَّةِ الَّتي يَحْمِلُها، ومُقارَنَةً مَعَ ما كانُوا يُصادِفُونَهُ في أَماكِنَ أُخْرَى[1].

يَرْوِي آخَرُ أَنَّ كَثيرًا مِنَ العَمَلِيَّاتِ الرَّئيسِيَّةِ الَّتي تَتَطَلَّبُ مَوْقِفًا فِقْهِيًّا دَقِيقًا لَمْ تَكُنْ لِتَحْصَلَ لَوْلا إِبْراؤُهُ الحازِمُ لِشَرْعِيَّتِها. ولَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى المَواقِفِ العامَّةِ؛ ففي أَوْقاتٍ حَرِجَةٍ أُخْرَى، تُطْلَبُ مَشُورَتُهُ العاجِلَةُ مِنْ أَرْضِ المَيْدانِ، فيَتَوَقَّفُ العَمَلُ، أَوْ يَتَصاعَدُ، بِناءً عَلَى ما يَنْصَحُ بِهِ. يَقُولُ الشَّيْخُ يُوسُف عَمْرو، في مُقابَلَةٍ أَجْرَيْتُها مَعَهُ، حَوْلَ سِيرَةِ السَّيِّدِ عَبْدِ المُحْسِن: "لَقَدْ كانَ سَماحَةُ آيَةِ اللهِ السَّيِّدِ عَبْدِ المُحْسِنِ فَضْلِ اللهِ قَدَّسَ سِرُّهُ، يُمَثِّلُ - بِشَخْصِهِ، وهَدْيِهِ، ومَواقِفِهِ تِجاهَ العَدُوِّ الإِسْرائِيلِيِّ - العالِمَ الرَّبَّانِيَّ، والفَقِيهَ السِّياسِيَّ، والمُجاهِدَ المُحَمَّدِيَّ، والمُؤْمِنَ الغَيُورَ عَلَى وَطَنِهِ وكَرامَتِهِ، والزَّاهِدَ في

(1) السَّراب، ص 35.

الدُّنْيا بِمَظاهِرِها.

وقَد ابْتَلاهُ اللهُ تَعالَى أَشَدَّ البَلاءِ في نَفْسِه، وأَهْلِ بَيْتِه؛ فَما زادَهُ ذَلكَ إِلَّا إِيمانًا وتَسْليمًا لِقَضاءِ اللهِ تَعالَى، وإِعْلانًا لِلْمُؤْمِنينَ، أَنَّ طَريقَ الجَنَّةِ لا يُنالُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، والابْتِلاءِ بِالجِهادِ. وبَعْدُ، فَلا غَرْوَ أَنْ يَصِحَّ في وَصْفِه، أَنَّهُ كانَ مِنْ عُلَماءِ جَبَلِ عامِلَ، كَما كانَ أَيُّوبُ (عَلَيْهِ السَّلامُ) في الأَنْبِياءِ صَبْرًا، واحْتِسابًا، وتَقَرُّبًا لله تَعالَى"[1].

مُحاوَلاتُ اغْتِيالِهِ

أَدْرَكَ العَدُوُّ الدَّوْرَ المُؤَثِّرَ لِهَذه الشَّخْصيَّة، الَّتي لَمْ تُعْرَفْ حَتَّى ذَلكَ الحِين، بِغَيْرِ العِلْمِ والفَضيلَة؛ فَنَظَّمَ حَمْلَةَ ضَغْطٍ، تَصاعَدَتْ مَعَ الوَقْتِ، لِتَتَحَوَّلَ إِلَى اسْتِهْدافٍ مُباشِرٍ، تَرْهيبًا، ومُحاوَلاتِ اعْتِقالٍ، واغْتِيالٍ، وقَتْلٍ. في البِدايَةِ، أَرْسَلَ العَدُوُّ مَنْ يُشَجِّعُهُ عَلَى الرَّحيلِ إِلى العاصِمَة، بِناءً عَلَى تَسْريبٍ مُتَعَمَّد، مَفادُهُ أَنَّ الاحْتِلالَ يُخَطِّطُ لِلنَّيْلِ مِنْهُ؛ ولَمَّا لَمْ يَأْبَهْ، وَزَّعَتِ الاسْتِخْباراتُ الصِّهْيُونِيَّةُ - عَلَى مَدَى المَناطِقِ المُحْتَلَّة - قائِمَةً بِأَسْماءِ قِياداتٍ، غَيْرِ مَرْغُوبٍ اسْتِمْرارُها في الإِقامَةِ فيها، وتَصَدَّرَ القائِمَةَ اسْمُ السَّيِّدِ قَدَّسَ سِرُّهُ.

بَعْدَ ذَلكَ كَرَّتْ سُبْحَةُ الاعْتِداءاتِ المُسَلَّحَة، الَّتي زَرَعَتْ مَنْزِلَهُ بِالرَّصاصِ، والقَذائِفِ، والصَّواريخِ، في سَبْعَ عَشْرَةَ مُحاوَلَةً مُباشِرَةً لِلاغْتِيالِ، يَفْصِلُ بَيْنَ الواحِدَةِ والأُخْرَى أَسابيعُ، أَوْ أَيَّامٌ، وأَحْيانًا ساعاتٌ قَليلَةٌ، وفي إِحْداها اسْتُعْمِلَتْ عبوةٌ كَبيرَةُ الحَجْم، زُرِعَتْ عَلَى مَمَرِّهِ اليَوْميِّ إِلَى الصَّلاة؛ وفي أُخْرَى، صَواريخُ مُوَجَّهَةٌ، اخْتَرَقَتْ سَريرَهُ الخاصَّ؛ أَمَّا آخِرُ هَذه الاعْتِداءاتِ، فكانَتْ بِمَرْوَحِيَّاتٍ حَرْبِيَّةٍ، أَصابَتْ صَواريخُها الأَرْبَعَةُ مَنْزِلًا مُجاوِرًا[2].

(1) الشَّيْخ يُوسُف عَمْرو، كِتاب: «عُلَماءُ عَرَفْتُهُمْ»، الحَلْقَة الأُولَى.
(2) السَّراب، ص 36.

نَجاتُه، وإصابَةُ زَوْجَتِهِ

نَجا رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ المُحاوَلاتِ الَّتي اسْتَمَرَّتْ حَتَّى جَلاءِ الاحْتِلالِ عَنْ هَذِهِ البُقْعَةِ الجَنُوبِيَّةِ وجوارِها في حَزيران 1985، لَكِنَّ زَوْجَتَهُ، كَرِيمَةَ المُقَدَّسِ آيَةِ الله السَّيِّد عَبْد الرَّؤُوف فَضْل الله، أُصِيبَتْ في إِحْداها، بَعْدَ أَنْ دَفَعَتْها اللَّهْفَةُ، إلى اقْتِحامِ غُرْفَةِ دَرْسِه، المَكْشُوفَةِ عَلَى مَواقِعِ النِّيران، بَعْدَ لَحَظاتٍ مِنَ البَدْءِ بِإِطْلاقِها، كانَتْ إِصابَةً بالِغَةً، أَدْخَلَتْها في غَيْبُوبَةٍ اسْتَمَرَّتْ أَشْهُرًا، لِتَسْتَفِيقَ عَلَى شَلَلٍ نِصْفِيٍّ، وجِراحٍ مُضْنِيَةٍ، كابَدَتْها طَوالَ ثَلاثِ سِنِينَ، قَبْلَ أَنْ تُسْتَشْهَدَ.

مُنْذُ إِصابَتِها، صارَ جِهادُهُ جُزْءًا مِنْ سِيرَتِه الشَّخْصِيَّة، وبَعْضِ مَلامِحِ وجْدانِه، وأَساهُ الخاصِّ، وقد ضاعَفَ مِنْ أَسَفِه، أَنَّها نُقِلَتْ وَحِيدَةً إِلى مُسْتَشْفَى قُوَّاتِ الطَّوارِئِ الدَّوْلِيَّةِ في النَّاقُورَةِ - وهِيَ الَّتي لَمْ تَرَها الشَّمْسُ - وظَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ شَهْرَيْنِ، أَوْ يَزِيدُ؛ وقَدْ حالَ العَدُوُّ دُونَ عِيادَتِها؛ حَتَّى أَنَّ النِّسْوَةَ مِنْ أَبْناءِ قَرْيَتِها، اللَّواتِي قَصَدْنَها، تَعَرَّضْنَ لِلإِرْهابِ في الطَّرِيقِ، ورُدِدْنَ عَلَى أَعْقابِهِنَّ[1].

الصُّمُودُ، ورَفْضُ العُرُوضِ

لَمْ تَفُتَّ هَذِهِ المُعاناةُ مِنْ عَضُدِه، ولا أَثَّرَ في صُمُودِه، وُقُوعُ أُسْرَتِه الكَبِيرَةِ، تَحْتَ طائِلَةِ الخَطَرِ الدَّاهِمِ، وتَعَرُّضِ بَلْدَتِه لِلْحِصارِ، وهِيَ الَّتي غَدَتْ تَحْتَ الاحْتِلالِ حِصْنًا مَنِيعًا يَهابُ الاحْتِلالُ وعُمَلاؤُهُ مِن اقْتِحامِها. أَصَرَّ عَلَى مَوْقِفِه في الصُّمُودِ على الرُّغْمِ مِنْ تَعَدُّدِ العُرُوضِ الَّتي تَخَلَّلَتْ أَوقاتِ الهُدُوءِ بَيْنَ هَجْمَةٍ وأُخْرَى؛ وكانَ رَفْضُهُ لَها مِثالًا آخَرَ عَلَى ما تَحَلَّى بِهِ ذَلِكَ السَّيِّدُ المَهِيبُ مِنْ حَزْمٍ، وصَلابَةٍ، وجُرْأَةٍ. فيَوْمَ أَرْسَلَتْ قِيادَةُ الاحْتِلالِ، مَنْ يَحْمِلُ إِلَيْهِ رَغْبَةَ وَفْدٍ رَفِيعٍ بِزِيارَتِه، وفي عِدادِه العَمِيلُ المَعْرُوفُ عَقْل هاشِم، والقائِدُ الصِّهْيُونِيُّ لِلْمَنْطَقَةِ الشِّمالِيَّةِ؛ أَرْفَقَ رَفْضَهُ بِتَهْدِيدٍ مُبَطَّنٍ،

(1) السَّراب، ص 36.

بِأَنَّهُمْ مُحْتَلُّونَ، ويَسَعُهُمُ التَّنَقُّلُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُونَ، لَكِنَّ مَنْ يَأْتِي يَتَحَمَّلُ مَسْؤُولِيَّةَ نَفْسِهِ.

ولَمْ يُعَدِّلْ مِنْ بَرْنامَجِهِ، المُرْتَكِزِ عَلَى البَقاءِ، مُحاوَلاتٌ أُخْرَى، مُتَعَدِّدَةُ الأَوْجُهِ، بَينَها اقْتِحامُ مَنْزِلِهِ، مِنْ قِبَلِ قُوَّةٍ كَبِيرَةٍ، مِنَ مُخابَراتِ العَدُوِّ، بِهَدَفِ إِبْعادِهِ، كَما عُلِمَ فِيما بَعْدُ؛ فغادَرَ عَبْرَ المَسالِكِ الجَبَلِيَّةِ الوَعِرَةِ، إِلى أَحَدِ بُيُوتِ القَرْيَةِ المُجاوِرَةِ، لِيَعُودَ بَعْدَ ساعاتٍ. كَما لَمْ يَأْبَهْ بِعَرْضٍ اسْتِثْنائِيٍّ قَدَّمَتْهُ قِيادَةُ قُوَّاتِ الطَّوارِئِ الجَنُوبِيَّةِ العامِلَةِ في جَنُوبِ لُبْنانَ، بِوَضْعِ طائِرَتَيْنِ تَحْمِلانِ شاراتِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ في تَصَرُّفِهِ، لِتَأْمِينِ انْتِقالٍ آمِنٍ لَهُ ولِعائِلَتِهِ إِلى بَيْرُوتَ، بَعْدَ تَصاعُدِ الاعْتِداءاتِ عَلَيْهِ[1].

وخَمَّنَ السَّيِّدُ أَنَّ في هَذا العَرْضِ، رَغْبَةً إِسْرائِيلِيَّةً مُضْمَرَةً. "قَدَّمَ سَماحَتُهُ في صَبْرِهِ وصُمُودِهِ الجَبَّارِ في جَبَلِ عاملَ - خلالَ سَنَواتِ الاحْتِلالِ الإِسْرائِيلِيِّ، على الرُّغْمِ مِنْ تَعَرُّضِهِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مُحاوَلَةَ اغْتِيالٍ مِنْ إِسْرائِيلَ وعُمَلائِها - دَرْسًا لا يُنْسَى في التَّفانِي، والتَّضْحِيَةِ، والصَّلابَةِ في وَجْهِ العَدُوِّ، على الرُّغْمِ مِنَ الآلامِ الكَبِيرَةِ، والمُعاناةِ الَّتِي نَتَجَتْ عَنْ إِصابَةِ زَوْجَتِهِ في إِحْدَى المُحاوَلاتِ الغادِرَةِ، وأَدَّتْ إِلى اسْتِشْهادِها لاحِقًا؛ وأَعْطَى سَماحَتُهُ دُرُوسًا عَمَلِيَّةً في الثِّقَةِ بِاللهِ، والاطْمِئْنانِ إِلى قَضائِهِ، بِرَفْضِهِ مُغادَرَةَ مَنْزِلِهِ في بَلْدَةِ خِرْبَةِ سِلْمٍ، على الرُّغْمِ مِنْ حالَةِ اللَّااسْتِقْرارِ، واللَّاأَمانِ، الَّتِي أَحاطَتْ بِهِ، نَتِيجَةَ تَكَرُّرِ أَعْمالِ إِطْلاقِ النَّارِ والقَذائِفِ عَلَى مَنْزِلِهِ مِنْ قِبَلِ الاحْتِلالِ وعُمَلائِهِ، وزَرْعِ العبواتِ النَّاسِفَةِ في الطَّرِيقِ المُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ"[2].

اِحْتِضانُهُ لِلْمُقاوَمَةِ، وتَأْيِيدُهُ لَها

مَكَثَ في المَناطِقِ المُحْتَلَّةِ، حَتَّى انْكِفاءِ الاحْتِلالِ عَنْها، إِلى ما يُعْرَفُ بِالشَّرِيطِ الحُدُودِيِّ، وتَحَوَّلَ صُمُودُهُ إِلى أَحَدِ الفُصُولِ البارِزَةِ، الَّتِي تُؤَرِّخُ لِتِلْكَ

(1) السَّراب، ص 37.
(2) الإِعْلامِيّ نايف عَبْد الحَسَن كريِّم، بِتارِيخ 16 /9 / 2010.

المَرْحَلَة، وما تَلاها. وبَقِيَ عَلَى عَلاقَته الحَميمَة والأَبَويَّة بِالمُقاومينَ الَّذينَ تَضاعَفَتْ أَعْدادُهُمْ، وانْتَظَمَتْ صُفُوفُهُمْ؛ بَلْ إِنَّ غالبِيَّةَ الشُّهَداء الَّذينَ سَقَطُوا في تِلْكَ المَرْحَلَة، عَرَفَتْ دِيوانَهُ، وداوَمَتْ عَلَى مَجْلِسه. لَقَدْ كانَ صُمُودُهُ، عَلَى ما يُقَدِّرُ مُواكِبُوهُ، دَعْوَةً واضِحَةً إِلى رَفْع مُسْتَوَى المُشارَكَة في المُقاوَمَة، واعْترافًا بِسَعَة الدَّوْر وجَلالِه الَّذي تَقُومُ بِه، وقُدْسِيَّة الأَهْداف الَّتي تَسْعَى إِلَيْها.

قَدْ أَصَرَّ - إِثْرَ تَحْرير القِسْم الأَكْبَر منَ الأَراضي المُحْتَلَّة، في العام 1985 - عَلَى احْتضانِ الثُّلَّة المُجاهِدَة، والانْتصارِ الواضِح لَها، والدِّفاع عَنْها في مُواجَهَة التَّحْريض الدَّاخليِّ، والتَّشْهير المُوَجَّه ضِدَّها. بَلْ تَجاوَزَتْ أَنْظارُهُ إِلى المَناطِق، الَّتي بَقِيَتْ تَرْزَحُ تَحْتَ ثِقْل الاحْتلال؛ بَحَثَ في أَمْر الانْتقال إِلَيْها، فيما لَوْ أَدَّى ذَلكَ إِلَى تَعْزيز الصُّمُود، وتَأْجيج رُوح المُقاوَمَة[1]. ارْتَبَطَ بِعَلاقاتٍ وَطيدَة مَعَ القيادَة السِّياسيَّة للْمُقاوَمَة، ولا سيَّما مَعَ الشَّهيد السَّيِّد عَبَّاس المُوسَويّ قُدِّسَ سِرُّهُ الَّذي شَغَلَ منْ نَفْسه مَكانَةً خاصَّةً، فيما دَأَبَ السَّيِّدُ الشَّهيدُ، وفي ظُرُوف حاسمَة عَلَى اسْتطْلاع آرائه، والتَّزَوُّد بنَصائحه. والمَعْرُوفُ أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ، كانَ منَ القلَّة الَّتي مَنَحَت الشَّرْعيَّةَ، والتَّأْييدَ المُبَكِّرَ للإِطار التَّنْظيميِّ للْمُقاوَمَة والحَرَكَة الإِسْلاميَّة؛ على الرُّغْم منَ التَّحَفُّظ الَّذي كانَ سائدًا في بَعْض الأَوْساط تجاهَهُ. وقَدْ أَدَّتْ مَواقفُهُ الصَّريحَةُ في هَذا الشَّأْن إِلى تَعَرُّضه لحَمْلَة مُضايَقات، دَفَعَتْهُ إِلى النُّزُوح إِلى بَيْرُوتَ.

مَرَضُهُ ووَفاتُهُ

تَضافَرَتْ عَلَيْه في المَرْحَلَة الأَخيرَة منْ عُمُره، ضُغُوطاتٌ هائلَةٌ، وتَعَدِّياتٌ ظالمَةٌ، ضاعَفَ منْ قَسْوَتها، أَنَّها منْ مُقَرَّبينَ، وأَبْناء جِلْدَته ومُجْتَمَعه، وبَعْض ممَّنْ نالُوا رعايَتَهُ، قَبْلَ أَنْ تُنْهكَ سنيّ المُعاناة ذَلكَ الجَسَدَ المُكافحَ؛ فأَقْعَدَهُ مَرَضٌ عُضالٌ، وظَلَّ يُرَدِّدُ، عَلَى أَلَمه الشَّديد، كَما يَعْرفُ كُلُّ مَنْ أَحاطَ بِهِ: "إِلَهي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ سَخَطٌ، فلا أُبالي". إِلى أَنْ أَسْلَمَ الرُّوحَ

(1) السَّراب، ص 38.

إِلَى بارِئِها، في 23 شَعْبانَ 1412 هـ المُوافِق لِـ 26 شُباط 1992[1]. وقَدْ وُورِيَ ثَرَى بَلْدَةِ خِرْبَةِ سِلْمَ العامِلِيَّةِ، حَيْثُ رَوْضَتُهُ.

الخاتِمَةُ

في نِهايَةِ المَطاف، أَقُولُ بِكُلِّ تَجَرُّدٍ ومَوْضُوعِيَّة: لَقَدْ عِشْتُ في ظِلالِ السَّيِّدِ عبد المحسن فَضْل الله رَحِمَهُ اللهُ، وتَنَقَّلْتُ بَيْنَ جَنَباته قَدَرَ المُسْتَطاع؛ جُبْتُ في آفاقِهِ الرَّحْبَة، ثُمَّ خَرَجْتُ بِبَحْثِي، آمِلًا أَنْ أَكُونَ قَدْ نَجَحْتُ في إِعْطاءِ الصُّورَةِ الصَّحيحَةِ عَنْ عَصْرِهِ وحَياته. ولَكِنِّي تَأَكَّدْتُ بِأَنَّ هَذا الجَبَلَ العامِلِيَّ، أَرْضٌ خِصْبَةٌ، مِعْطاء، ومَعِينٌ دافِقٌ، ما كَلَّ عَنِ العَطاء، حَتَّى في أَحْلَكِ الأَزَمات؛ وصَدَّرَ الكَثيرَ مِنَ العُلَماءِ والأُدَباءِ إِلَى الأَصْقاعِ العَرَبِيَّة، فانْتَفَعَ مِنْ عَطائِهِمْ. السَّيِّدُ عَبْدُ المُحْسِنِ فَضْل الله رَحِمَهُ اللهُ، عالِمٌ عَلَمٌ، وشاعِرٌ كَبيرٌ، ولَوْ لَمْ يُغَطِّ عِلْمُهُ عَلَى شِعْرِه، لَكانَ شَبيهًا بِالسَّيِّدِ المُرْتَضَى.

مُؤَلَّفاتُهُ، ونِتاجُهُ الفِكْرِيُّ والأَدَبِيُّ والفِقْهِيُّ

1. الإِسْلامُ وأُسُسُ التَّشْرِيع، بَحْثٌ مُقارَنٌ.
2. بُلْغَةُ الطَّالِب في شَرْحِ المَكاسِب.
3. نَظَرِيَّةُ الحُكْمِ والإِدارَةِ في عَهْدِ الإِمامِ عَلِيٍّ c في عَهْدِهِ لِلأَشْتَر.
4. كِتابُ الشَّرِكَة.
5. كِتابُ الوَصِيَّة.
6. وِلايَةُ الفَقيه.
7. دَليلُ الفَتْوَى.
8. مُسْتَنَدُ الفَقيه.
9. الإِسْلامُ شَكْلًا ومَضْمُونًا.
10. بُحُوثٌ فَلْسَفِيَّةٌ.
11. السَّراب.

(1) السَّراب، ص 38.